دراسة في فن المسرح

بقلم وليد اخلاصي

* * *



اصبح من الثابت علميا ان الدين كان له الاثر الاكبر في ظهور المسرح ، فالكتب المقدسة والاحتفالات والمواكب الدينية والرقص وتلاوة الملاحم ، هي الاسس الاولى لنشوء المسرح في الشرق (الهند والصين واليابان وغيرها) وفي الغرب (اليونان) . وما دور الانسان الذكي هنا الا في اعطاء تلك البواعث قيمة ملموسة ، وتبقى للانسان دوما القيمة الاولى في ظهور الاشياء .

وفي مجال التعريف بالمسرح تعريفا رامزا نقول ، المسرح كما نراه الان ونشاهده ابتدأ يوم ان خرج للناس رجل خبيث ، جعل يقلد الاخرين ويحاكيهم في اقوالهم وافعالهم ، يستند في ذلك الى مرونة كبيرة في اعضائه والى قوة ملاحظة هائلة جعلته يبدل من شخصيته ويحور فيها حسب ما يشاء ويقدر ، وتربص بالرجل من هو امكر منه فألبسه من افكاره وخططه ما ألبسه ، واجتمع الكاتب المفكر بالممثل المنفذ ، واختارا غرفة هدم جدارها الرابع وانفتح للرائين واضحا . وكان هذا هو بدء المسرح والمسرحية في تاريخ الانسان ، أفلم تكن اذن تلك البداية الا مجرد خدعة لطيفة قام بها رجال اذكياء . وكما ابتدأ البيت يوم بدأ بحفرة في قعر جبل ، نما المسرح كذلك صغيرا وظل ينمو كأطفال العمالقة ، حتى اصبح في عصرنا الحاضر معبدا من معابد الانسانية الكبيرة ، يقوم سدنته بتقديس دين هو دين الفن الخالد ابد الابدين .

ولعل المسرح اليوناني بأساطيره وخرافاته التي كانت تربط بين الناس وبين السماء في تلك الوثنية القديمة هو اول مسرح بالمعنى الذي نعرفه ، رقعة يحتلها الكورس وبقية الممثلين ، تفصلهم عن الجمهور المشاهد مساحة تخصص للمشاعل ذات اللهب . الا ان للدكتور فيليب حتي رأيا آخر في اول مسرح اذ يقول في كتابه تاريخ سورية :

« تدور احدى قصائد الادب الكنعاني حول النزاع السنوي بين اله النبات عليان بعل وخصمه موت ، وينتصر موت على بعل في أول الامر وهذا طبيعي في بلاد يضع فيها جفاف الصيف حدا لحياة النبات ، ولكن عندما تتجدد الامطار في الخريف فان بعلا يعود فينتصر على موت ، ومن المحتمل ان هذه القصيدة كانت تمثل كمسرحية على الساحل السوري قبل ان يفكر اليونان بالمسرحية بعدة قرون ، واذا صح هذا فيكون السوريون قد سبقوا اليونان الذين يعتبرون عادة منشيء التمثيل المسرحي في العالم . »

وبانتقال الحضارة من اليونان الى روما ، انتقل المسرح اليها ، وبموت روما لم يمت المسرح ، بل انتقل في عهوده المتعددة الى عصر النهضة حيث قام شكسبير على اكتاف ذلك العصر بحقن المسرح بدم الرومانسية الجديد .

ويمضي المسرح شجاعا يتقلب في عثرات وصعاب ، حتى اذا مر في فرنسا وانتهى منها الى القرون الحديثة وفد الينا صحيحا قويا ، ومعه كل مذاهبه العجيبة ، من كلاسيكية ورومانسية وواقعية الى طبيعية ورمزية ومن تأثرية وتعبيرية الى وجودية وسريالية وغيرها من عشرات المذاهب التي ان كانت تدل على شيء فانما تدل على حيوية فائقة يتمتع بها فن المسرح ، ويبين لنا مقدار تقبله للاتجاهات والتيارات الفكرية العامة .

ثمة سؤال يراودنا فيما اذا اراد المسرح دخول بلد او حضارة ما ، ما هو وصف تلك الفترة ، قد تكون كما يلي :

« اذا جاء المسرح ، وصول تخوم البلد ، هيا استعدي أيتها المدنية لاستقباله ، اترى يتم الامر بباقة ورد ؟ أم تحية يد ؟ الا ان المسرح ليس بالزائر العادي ، انه يعتد بنفسه ، يثق بمكانته ، لا يدخل بلدا الا ويكون الاستعداد لاستقباله رائعا ، شأنه في ذلك شأن الغزاة الفاتحين ، وأي غزاة ؟ !

المسرح كما نعرفه صنو للحضارة العتيدة وأخ للرقي والتمدن ، هو ابن العبقرية الباهرة ، المعبد الحديث لدين ابد هو دين الانسانية الواعية ، له مقومات المعبد ، قدسيته سدنته ، وهو اذ يخاطب الناس فتنصت يدخل القلب فيذكي العاطفة ويغزو العقل فينعش التفكير ، هو وسيلة لتجمع المثقفين والمدركين ، الحديث عنه يطول ، فهو واسع الصدر حنون ، يحتضن بذراعيه الفنون كل الفنون ، جدير بنا ان نوليه من الاهتمام ما نستطيع هو تاج الحضارة الحقيقية نوليه الملك فتستقيم .

من الشائع في عالم المسرح ترديد كلمتي دراما ، ودرامي ، اي مسرحية ومسرحي ، وجدير بنا ان ندرك ما تقصده الكلمتان كيما ندرك ذاك العالم ونعيه . ولقد كان لارسطو الاولية في وضع حد للنزاع الناجم عن تفسير تلك الكلمتين ، حين وصف المسرحية بأنها القصة المسرحة ذات الهدف اي القصة التي ترمي الى تقديم الحدث عن طريق الحركة ، والتي تقدم هذا الحدث تقديما فنيا خالصا ، اي ان المسرحية قصة مترجمة الى حركة عن طريق شخصيات وحوار ، ومقسمة تقسيما خاصا بها لا يشابهها في ذلك اي عمل ادبي اخر وان المسرحية هي « محاكاة فعل ما » ، وهذا القول مصداق لما ذكرناه من قبل بأن المسرح اول ما بدأ من صنع رجل خبيث يجيد المحاكاة والتقليد .

وقد توسع من بعد ارسطو في هذا التعريف رجال اخرون امثال ابسن وتشيخوف وقالوا بأن المسرحية هي محاكاة الحياة ، ونظرية المحاكاة هي من اولى النظريات في

* محاضرة ألقيت في المركز الثقافي العربي في حلب .

تعريف كلمة الدراما ، وهــي كذلك أساس لتعريف الفن بصورة عامة ، الا ان الغموض الذي يوشحها يجعلنا مترددين في قبولها اكثر منا مسلمين بها ، وتبقى كلمة المحاكاة امرا يستحق البحث .

قد ينقذنا من الحيرة قول فيكتور هيجو الآتي : « اظن انه قد قيل ان المسرحية مرآة تنعكس فيها الطبيعة الا ان هذه المرآة اذا اريد بها ان تكون مرآة عادية لها سطح املس مستو ، لما امكنها ان تعكس لنا صورة فقيرة للاشياء ، صورة محجمة ، صادقة ولكنها صــورة لا حيويــة فيها ، فمن المعروف ان اللون او الضوء مفقودان في الصورة المنعكسة البسيطة ، ولهذا وجب ان تكون المسرحية مرآة بؤرية اي تجمع الاشعة الملونة وتكثفها بدلا من ان تجعلهــا ضعيفة واهية ، مرآة تجعل من الشعاعة ضوءا ومن الضوء منارا . وهنا فقط تستحق المسرحية ان تكون فنا ، اي ان الطبيعة كما هي ليست بالفن المرتجى بل هي محاكاة لها ، وكما يقول هيدلان : « ان المسرح لا يصور لنا الاشياء كما هي بالفعل ولكن كما ينبغي ان تكون » .

ومن هذا القول استطاعت الثورة الطبيعية ان تدخــل المسرح من اوسع ابوابه ، وانطبقت عليه قوانين التطور فاذ به كائنا حيا ، وبدلا عن اخراج منظر لغرفة طعام وهمية، اوغل المسرحيون في المحاكاة فأخرجوا منظرا يتناول فيه الشخوص طعاما حقيقيا ، وتتصاعد رائحة الشواء الشهية من فتحة المسرح فتثير شهية المتفرجين . واتى بيلاسكو (١٨٣٠–١٩٣١) المخرج الاميركي المشهور ليجعل من نظرية المحاكاة في المسرح اكثر من تطبيق عادي لها ، جعلها حقيقة واقعة ، ويروى عنه انه ابتاع بنسيونا حقيقيا ، فصله بعضه عن بعض ثم اعاد تشييد بعض اجزائه على المسرح ، وكان المتفرج يكاد يقسم انه شاهد مرة مثل هذا المنظر في احد الاماكن المألوفة ، ولو كان اقسم لكــان صادقا بلا ريب .

ولكن الاغراق في المحاكاة يخلق لنا مشكلة جديدة ، اذ اننا لو مضينا قدما في اتباعها كما يقول الناقد الاميركــي (وولتر كير) لاصبحنا حرفيين بلداء ، واذ اثرنا عليها غدونا فوضويين دون ذكاء ، الا ان هذه المشكلة ما كان لها ان توجد ، فالمحاكاة بهذه الطريقة الفظيعة لا تعني الدقة مع الوسوسة والتشكك ، وانما تعني المماثلة . والمماثلة تختلف عن المحاكاة ، فالمحاكاة ليست هي التقليد بل هي مزيج من التشابه والاختلاف وهي تحمل في جوفها بذور التناقض ، ومن التناقض تنتج الحيوية ، والحيوية هــي الطريق الصحيحة لفن سليم ، فالفنان ليس هو الذي يقول لك ان فلانا فعل كذا او يصف لك شخصية معينة وصفا حتى ولو كان دقيقا ، ثم يقف عند ذلك الحد ، انما الفنان هو الذي يركب لنا قضية منطقية ثم يضع لنا نقيضها ، ثم يوضح ذلك التناقض بصياغة قضية ثالثة تتركــب من القضيتين الاولى والثانية ، اي ان الفنان هو الذي يؤلف شيئا جديدا من مكونات بسيطة ، وهذا ما يسمى بالجدل Dialectico ، وفي غمرة هذا التناقض يبدأ دور المؤلف المسرحي واضحا وعظيما في عملية الفوضى تلك ، اي عملية تنسيق الشخصيات والافكار وما الفن فــي الحقيقة الا الفوضى المنظمة ، الفوضى التي تنتظمها الوف القوانين الداخلية والخارجية دون ان يكون ذلك التنظيم واضحا ، مثل ذلك كمثل الغابة الطبيعية ، هي جميلة في فوضاها التي ما هي في الحقيقة الا فوضى منظمة ، فوحدة الاضداد في عملية المحاكاة ، ويقصد بالاضداد التشابه والاختــلاف معا لنفس الفكرة والشخصية المسرحية ، هــي التفسير الحقيقي لنظرية المحاكاة في المسرح، والتي هي اقوى نظرية انشأت من عهد ارسطو حتى يومنا هذا . والمدارس الفنية في المسرح مهما تعددت ، تعود كلها الى اصل واحد ، فالنبع ثابت والفروع عديدة، يتغير مجراها حسب المكان والزمان.

نعود الى تعريف ارسطو الذي يقرر ان المسرحية هــي القصة المسرحة ، لنجد في تعريفه تشديدا قويا على كلمة قصة اي الموضوع ، ولنتصور هنا بناء فخما ذا مدخــل مهيب يشعرنا بعظمة المسرح الذي نحن داخلــون اليه ، سندخل حتما لنجد المقاعد المخملية المريحة تصطف باحترام بالغ امام خشبة المسرح المباركة ، والتي يصطف عليها جيش كبير من الممثلين والفنيين يقودهم مخرج صارم متين ، لنتصور كل هذا ، رائع وجميل ، لكن اللوحة الباهــرة تنقصها الرواية ولا شك ، القصة التي من اجلهــا اجهد المعماريون انفسهم لبناء المسرح وانهك الممثلون في التدريب، ان هذا المشهد النقيض للواقع كمثل رجل اثث بيتا ولــم يجد بعد عروسا مناسبة .

وهنا تثب القصة الملائمة الى رأس قائمة الاسس التي يستند عليها المسرح ويستوي ثابتا كالطود العظيم ، وان لم تكن القصة هي الاولى فانها اهمها واجلها خطرا . فالقصة او الموضوع هي نقطة البدء ، وقد يتبادر الى الذهن ان اية قصة قد تنفع للعمل المسرحي، ولكنا نعود فنؤكد على ان القصة المسرحية هي تلك القصة التي ترمي الى تقديم الحدث عن طريق الحركة ، ولا تتم الحركة الا عن طريق التناقض الذي يحدث داخل الشخصية على هيئة صراع داخلي او الذي يحدث خارج الشخصية على هيئة حوار او صراع خارجي .

يقول (لابوس اجرى) المخرج المجري في معهد اميركي، بأن القصة المسرحية لا تكون كاملة الا بأركانها الاربعة الآتية:

١ — الفكرة الاساسية للقصة .

٢ — الشخصية المسرحية ، وهــي التي يعبــر عنها ارسطو بالاخلاق .

٣ — الصراع بين الشخصيات .

٤ — عموميات اخرى ! !

اما الفكرة الاساسية فهي المقدمة المنطقية للمسرحية ، فمثلا المقدمة المنطقية لمسرحية عطيل هي « ان الغيرة تقضي

على نفسها كما تقضي على مناط حبها » . والفكرة المسرحية الاساسية هي مفتاح الخلود والنجاح واي اعوجاج او سوء فيها او اية فكرة عائمة لا هدف لها ، تجعل من المسرحية عملا لا قيمة له وينبذها التاريخ كما تنبذ النوى.

وتعتبر الشخصية المسرحية وسيلة للتعبير عن الفكرة الاساسية او المقدمة للمنطقية ، واذا كانت القصة هي اهم ما في المسرح فان اهم ما في القصة هو الشخصية ، لا عقدة المسرحية كما يظن البعض ، لان العقدة تتبع من الشخصية وليس العكس ، ولان الشخصية المسرحية هي الثمرة الاجمالية لكيان الانسان المادي وللمؤثرات التي تفرضها عليه بيئته . ولتوضيح امر الشخصية في المسرحية ، يحق لنا استعمال تعبير الخارطة العلمية للشخصية المسرحية في وضع ابعاد تلك الشخصية وتفصيلها ، وتتحد تلك الابعاد في ثلاث هي :

أ ـ الكيان الجسماني او الفسيولوجي ، ويقوم هذا البعد على الجنس الذي تنتسب اليه الشخصية ثم السن والطول والوزن ولون الشعر والعينين والجلد ، والاناقة والصحة وصنوف الشذوذ وما الى ذلك كله مما يتعلق بحالة الانسان العضوية .

ب ـ الكيان الاجتماعي او السسيولوجي ، ويقوم هذا البعد على الطبقة الاجتماعية التي تنتسب اليها الشخصية المسرحية ، وعلى ماهية التعليم والحياة المنزلية والصفة الاجتماعية والعادات والاصدقاء وغيرها من الصفات الاخرى.

جـ ـ الكيان النفسي او البسيكولوجي ، وهو عند لايوس اجرى ثمرة الكيانين الجسماني والاجتماعي ، ونتيجة للتفاعل الكيميائي بينهما وليس الفيزيائي .

وتلك الخارطة السالفة الذكر هي التي تعطينا شخصية مسرحية كاملة الوضوح ، الا اننا سنفقد المسرحية قيمتها بدون شك لو انا تركنا تلك الشخصية ولم نزج بها في صراع مهما كان نوعه ، لان الصراع صفة ملازمة للشخصية ينبع منها ويطورها وكما ان النقائض تولد الحركة والصراع، فان المسرحية الناجحة هي التي تجمع بين النقائض لكي يتولد الصراع . قد يكون مضحكا لو ان شكسبير جعل من عطيل وياجو الخبيث شخصيتين متشابهتين لا صراع بينهما ، اذن لكان شكسبير مجرد عامل بسيط يشد الستارة ويرخيها ، لكن عطيل نقيض ياجو ، وهذا التناقض هو الذي يجعل الصراع مستمرا بين ذينك النموذجين المختلفين من الاخلاق ، حتى اذا وسوس شيطان السوء في نفس عطيل ان اقتل ديدمونة الخائنة التي ما كانت يوما بخائنة ، نهتف نحن لعظمة شكسبير ، فقد صور لنا صراعا هائلا بين القيم الاخلاقية وبالتالي بين نماذج تلك القيم مصورة في شخصيات تلك المسرحية الرائعة .

ان في الصراع لتصوير دقيق لارادة الانسان يكافح من اجل هدف معين ، وهذا يذكرنا بوليم ارثر يقول : « المسرحية تمثيل لارادة انسان في صراع مع القوى الغامضة للعوامل الطبيعية التي تحوطنا وتستخف بنا ، انها واحد منا ، مقذوف به حيا فوق المسارح ليصارع الاقدار ضد القانون الاجتماعي ، ضد واحد من بني جنسه، ضد نفسه اذا لزم الامر ، ضد اطماع اولئك المحيطين به وضد رغباتهم واهوائهم وحماقاتهم وضد احقادهم . »

قد يظن ان مثل هذه الخارطة العلمية للشخصية المسرحية او مثل هذا التكنيك المتماسك للمسرح نفسه ، قد ابتدأ منذ ان كان المسرح ينشأ في رحاب الدين او منذ ان كان سوفوكليس ويوربيدز يؤلفان للمسرح اليوناني . ان الاعتقاد بمثل هذا الامر شيء خاطيء ، فثمة اختلاف كبير بين ما كان عليه المسرح وبين ما آل اليه ، وهذا دليل واضح على ان المسرح كاي كائن حي يخضع للتطور ويساير الحياة واحتياجات الشعوب، وان هذا الفن الرفيع لهو خير وسيلة للتعبير عما يريده الانسان وما يحس انه بحاجة اليه.

لقد كان الادب المسرحي في الماضي ينقسم الى نوعين لا يتشابهان ، الاول فن التراجيديا أي المأساة ، والثاني فن الكوميديا أي الملهاة . وكانت التراجيديا تستمد موضوعاتها الاساسية من اساطير الالهة وسير الابطال والملوك في حياتهم وموتهم ، في الوقت الذي كانت فيه الكوميديا تستمد موضوعاتها وشخصياتها من حياة عامة الشعب . وكان النوعان يشتملان الى جانب التمثيل على فنون اخرى مثل الرقص والانشاد تؤديه جوقة معينة تسمى بالكورس. الا ان هذا التقسيم كان يتبع بلا شك تقسيم الطبقات السائد انذاك في ظل القبيلة او الاقطاعية ، وحين حدثت الثورة الالية وما قبلها من ثورات اجتماعية نشأ ما يسمى « بالدراما البورجوازية » ، تستمد موضوعاتها من حياة الطبقة الوسطى فهي التي اصبحت تمثل المركز الحيوي للمجتمع . وبتطور النظام الاجتماعي للامم والشعوب تتخلص المسرحية نهائيا من اللواحق الاخرى كالرقص والانشاد وغيرها ويصبح لها شكل خاص يلائم المجتمع ، وسمي هذا الشكل «بالدراما الحديثة» ، والى جانب هذه الدراما نشأت انواع اخرى مثل المسرحيات الكوميدية والفارس (المسخرة) والمسرحيات الغنائية (الاوبرا والاوبريت) والمسرحيات الراقصة وغيرها ، علما بأن جميع تلك الانواع جعلت من الفرد العادي او الانسان الذي يمثل بشخصيته سواء الناس ، محور الاعمال المسرحية وكان هو البطل الاول لحوادثها ومشاكلها ، ولم تعد المسرحيات سوى تطبيقا فعليا لنظرية المسرح القائلة بأن المسرح هو محاكاة فعل ما ، وان الفن ما هو الا الفوضى المنظمة ، وعندما نقول ان الطبيعة هي الفوضى المنظمة ، ننتهي الى ان الفن هو الطبيعة ، او بتعبير اخر ان الفن المستمد من بيئته هو الفن الاصيل الذي يعيش ابدا .

هذا الموضوع يذكرنا برسالة المسرح ، حين قلنا انه معبد حديث لدين خالد هو دين الانسانية ، ولقد اخطأ جان جاك روسو المفكر الفرنسي الكبير حين قاد هجوما مرا على

المسرح ، ووجه رسالة لاذعة الى اهل جنيف لما علم بأن في نيتهم بناء مسرح لمدينتهم ، وقال في الرسالة :

«ان المتفرج لا يذهب الى المسرح بنية التثقيف والتهذيب، وهو لا يذهب اليه الا التماسا للتسلي والترويح الرخيص وهربا من التفكير الجدي في مشكلات حياته . »

ويظهر ان روسو لم تتح له الفرصة لان يرى مسرحية حديثة من تعسف رايه ، ولو انا اخذنا على محمل الجد ما يقوله هذا المفكر اذن لوضعت معظم الدول الشمع الاحمر على دور مسارحها ، ولكن الله تبارك لم يشأ ان يغمض حق او يهدر فن .

هنا يحق لنا ان نتساءل عن جدوى ذاك النقاش العجيب الدائر حول رسالة الفن وهل هو لمجرد الفن ام لخدمة الحياة والناس ، ان هذا الجدال لغريب حقا في ميدان المسرح بالذات ، فهل من الممكن ان يحبس الكاتب نفسه شهورا طوال لتأليف الرواية ، وينهك الممثل في اعداد نفسه وتدريبها ، ويعمل المصور على تهيئة الجو المناسب ، ويموت المخرج الف ميتة لانتاجها ، هل من المعقول ان يعمل كل هؤلاء للاغاية ؟ !

عبث حقا ان نعتقد مثل هذا الاعتقاد ، فان ابسن وتشيكوف واونيل وغيرهم من عظماء الكتاب المسرحيين لم يعبثوا ولا لهوا ، لقد كان وجه الحقيقة هو هدفهم وخدمة الانسان املهم وتصوير مستقبل افضل من احلامهم ، افتقول بعد هذا ان المسرح ليس مدرسة او معبدا ، ليس قائدا ورائدا ، عبث كل العبث ان ننكر على المسرح رسالته .

تقودنا رسالة المسرح الى الحديث عن « مسرحية المناسبات » ، واقصد بها تلك المسرحيات التي تكتب من اجل مناسبة ما ، اجتماعية كانت او وطنية او غيرها . ترى هل يكتب لمثل هذا النوع من المسرحيات الخلود ؟ ! او هل انها تؤدي الغرض دائما ؟ !

لقد شوهد ان مسرحية المناسبات رديئة في حالة كون طريقة كتابتها تجعلها مرتبطة بمكانها وزمانها لتصبح معه لا شيء اذا ما تقادم عليها العهد او عرضت في غير البيئة التي انتزع منها موضوعها .

ان من اهم خصائص المسرح انه اكثر الفنون تحقيقا لروح الشمول العالمي أي الا يكون محليا او اقليميا والا يكون موقوتا بزمن معين ، بل يقع في كل زمان وكل مكان ، وعند كل شعب من الشعوب . حينذاك يكتب للمسرحية الخلود كل الخلود ، ان هملت وعطيل لشكسبير واهل الكهف لتوفيق الحكيم والاف غيرها من المسرحيات لم تصبح من الاداب العالمية الا لكونها تحقق فكرة الشمول او الروح العالمي .

ان الادب الانساني هو الذي يبقى دائما ويذهب مع الريح كل ادب لا يحقق للانسانية العامة نصرا جديدا وكشفا حديثا في متاهات الروح الانسانية البعيدة الاغوار .

لقد قلنا منذ البداية ان المسرح قد وصل تخوم البلد، وهذا ايذان ببدء نهضة مسرحية في بلدنا ، ومع ان هناك من يقول انها بدات بظهور احمد ابو خليل القباني في دمشق وبدء نشاطه المسرحي فيها عام ١٨٦٥ ، وبظهور مارون نقاش وجورج ابيض في مصر وبشعريات احمد شوقي وعزيز اباظة وبنثريات توفيق الحكيم وعلي احمد باكثير .

اليس يكفي اذن ظهور امثال هؤلاء الممثلين والمؤلفين لتكون لدينا نهضة مسرحية ، اننا لا ننكر هذا فقد قلنا ان المسرح قد وصل تخوم البلد ، الا انه لم يعسكر فيها بكامل عتاده وتقاليده .

اننا على اعتاب نهضة مسرحية ، الا انها نهضة لم تكتمل بعد ، فثمة مشكلات تحوط موضوع المسرح تختلف في كثير من الاحوال عن مشاكل المسرح في الجمهورية العربية المتحدة ، واسوق هذه المقارنة للاحتمالات البعيدة المدى في استفادة سورية من تجارب مصر المسرحية ، مع ان المطلع على تاريخ المسرح المصري يؤكد على استفادتهم قديما من رجال مسرحنا الذين عماوا انذاك على مسرحهم .

وبينا نحن بصدد البحث عن مشكلات المسرح السوري، تلزمنا معرفة تأثير أهم كتلتين على تلك المشكلات ، اقصد : الدولة والفرد .

لا شك في ان رعاية الدولة للفنون المسرحية عمل حضاري ذو دلالة كبيرة على تقدم الدولة ، فالدولة الفرنسية تصرف على فرقة الكوميدي فرانسيز الناجحة ملايين الفرنكات علما بأن شباك التذاكر لتلك الفرقة يسجل ارقاما خيالية الا انها تبقى بحاجة لمساعدة الدولة كي تبقى على مستواها الفني الرفيع . وتقوم معظم الدول المتقدمة على رعاية الفنان وتكريمه ، وكذلك تنشىء له المعاهد الفنية التعليمية والمسارح والفرق الحكومية المتفرغة للعمل المسرحي ، وفي سورية ابتدات الدولة اهتماماتها المسرحية على مستويات عدة تجلت بانشاء فرقة المسرح القومي التابعة لوزارة الثقافة والارشاد تبعها بناء مسرح ابي خليل القباني بدمشق والاهتمام باصلاح مسرح بصري ليكون جاهزا للعمل الفني ، وقد يكون نصرا هائلا للمسرح السوري انشاء ادارة خاصة في الوزارة المعنية تعنى بالمسرح وتأخذ بأسباب تطويره ودفعه قدما الى الامام ، الا انه حق علينا ان نذكر تقصيرها في مجالات الانشاء بالنسبة للمدن الاخرى .

ويأتي دور الفرد والهيئات الشعبية ، كعامل هام يؤثر على قضية المسرح السوري ، ليؤكد لنا مدى مساهمة الجهود الفردية في سند قضية المسرح ، من ايمان عميق بأهميته وتدعيم لاسسه واخلاقياته وتكوين ثقافة فنية تشمله وجمهوره ، ولنا في بعض النوادي والجماعات دليل على صحة قولنا ، وقد يكون مجهود ندوة الفكر والفن الدمشقية ومخرجها الدكتور رفيق الصبان اكبر دليل على ذلك ، لما بذلوه في نقل التراث المسرحي الاوربي وما حاوله افرادها في اعطاء نمط صحيح للمسرح العالمي .

الا ان تلك المحاولات الجادة من طرف الدولة والافراد لم تمنع من بقاء العوائق قائمة امام المسرح السوري ، تحد من نمائه بل تدفنه حيث يولد ، وقد يكون من الجائز تعدد تلك العوائق الا اننا نستطيع ايجازها بالنقط الثلاث التالية :

١ ـ مشكلة وجود الكاتب المسرحي ، اذ ان خلو حضارتنا العربية من التجربة المسرحية يزيد من تعقيد تلك المشكلة الى جانب نزوع الكاتب العربي الى الاهتمام بالاسلوب الانشائي وقصر اهتماماته الفكرية على قضايا الشكل والانفعالات المباشرة والظاهرية ، والحق يقال ان مشكلة الكاتب العربي موضوع قائم بذاته يرتبط به وجود الكاتب المسرحي نفسه .

٢ ـ مشكلة الفنيين ، وجودهم وخبرتهم ، والفنيون هنا هم الممثلون والمخرجون وخبراء الاضاءة والديكور والموسيقى وغيرهم وتشكل هذه المشكلة عصب القضية المسرحية التي نحن بصدد التصدي لها ، اذ انها بمثابة الجهاز المنفذ للتقدم المسرحي .

٣ ـ مشكلة الجمهور ، والجمهور هنا له من الاهمية التي قد تجعل منه احيانا العنصر المحدد لقيام نهضة مسرحية ، حتى ان سارسيه وبرنارد شو ومن قبلهم باكون اصروا على ان مسرحية بلا جمهور شيء لا يمكن تصوره ، وهذا الراي مرتبط تماما بانفعالات الجمهور وذاك الشد والجذب او ما يعبر عنه بالتوتر بين ما يقوم به الفنان من تمثيل وبين ما يقوم به الجمهور من انفعال سلبي كان أم ايجابي ، فالفنان ذلك الكائن ذو النزعة الطاووسية لا يمكن له ان يفرز جميع خصائصه الفنية الا بوجود العامل الآخر الا وهو الجمهور .

ان اعداد الجمهور المناسب للمسرح امر يتعلق بالاخلاقيات العامة للبلد ، وتلك الاخلاق مرتبطة اشد الارتباط بالنظام الاجتماعي الذي يعتمد بالتالي على الشكل الاقتصادي والدخل القومي والفردي ، وعلى التطور العلمي وغيره مما يصعب بحثه في هذا المجال والذي يتعلق بعلم الجماعات ، والذي نستطيع قوله في هذا المجال هو ان اعداد جمهور مسرحي شيء اشبه باعداد الطفل كي يكون مواطنا صالحا للمستقبل .

قد لا يكون للنقد اية قيمة ما لم يتوج براي ذي دلالة علمية وواقعية، وقد كثرت في الآونة الاخيرطرح ملاحظات تتعلق بتطور المسرح فمن قائل ان الدولة هي المسؤولة الاولى عنه وقائل ان مرد ذلك التطور الى الناس انفسهم كأفراد ومؤسسات ، الا اننا نعتقد بوجوب تحديد نقطة للبدء تنطلق منها مشاريع قابلة للتنفيذ تساهم في حل جزء اكبر من مشاكل المسرح السوري ، فما هي نقطة البدء تلك ؟ !

يظل الشعب بأساطيره ومعتقداته وتقاليده مصدرا لاشياء فنية لا حدود لها كما وكيفا ، وان كان الشعب في سوريا لم يمارس بعد تجربة المسرح الا انه مستعد لتقبلها لما هو عليه من حب للفن وتقدير للبطولات والحكم وامثلة الفداء وهذا الحب والتقدير من طرف الشعب للقيم والمثل قد تكون لنا منطلقا في ابداء الراي ، مجرد راي ، عن المسرح : بدؤه وتطوره .

الراي : تقوم الدولة ممثلة بوزارة الثقافة والارشاد ، بتنظيم اعياد للمسرح في الاحياء الشعبية ، مكانها الهواء الطلق او ابنية متنقلة او ثابتة ، وزمانها المواسم الدينية كأعياد الفطر والاضحى او الاعياد القومية والمناسبات الوطنية وتقوم الفرقة التمثيلية باشراف مدرب فني بعرض مسرحيات تشجع الوزارة تأليفها .

وهنا لا بد لنا من ان نضم الى تلك الفرقة عناصر من الحي او المنطقة نفسها ، عناصر الرقص الشعبي والغناء والانشاد وصنع الملابس والازياء المختلفة وغيره .

اما المسرحيات المقدمة فتكون مستمدة من الاساطير الشعبية والدينية ، كقصص ابراهيم الخليل والف ليلة وليلة وابي زيد الهلالي وعنترة وقيس وليلى ، وسير بعض الشعراء والكتاب والفنانين امثال ديك الجن الحمصي وعمر البطش وفتحي محمد وبطولات افراد الشعب في مقاومتهم للاستعمار امثال سليمان الحلبي وجنيد حارق خان الشريجي ومئات غيرهم ممن يعج بهم التاريخ الشعبي .

ويستمر ذلك المهرجان اكثر من يوم بحيث يتلاءم وطول القصة او الاسطورة المقدمة ، ويستعان بالراوي الشعبي الذي ينقلب الى كورس يشبه الكورس اليوناني يساهم في رواية القصة المسرحية ويخفف من تكاليف الديكور ، وتساهم الاغاني الشعبية والرقصات على اضفاء جو من الحيوية المحببة لدى الجمهور .

وقد يعترض رجل اكاديمي على تلك النظرية بحجة انها لا تمكننا من عرض التراث الغربي على جمهورنا ، الا اننا برأينا السابق لا نعني ابدا عدم استمرار تقديم المسرح الكلاسيكي الذي تتبناه الدولة والافراد بل نشجع على قيامه ليبقى مدرسة فنية ودليلا على تنوع الحياة الفنية في بلدنا .

ان بلدنا الفتي ما زال في مرحلة البناء ، الا انه لن ينسى ابدا ان يفرد في مخططاته الجديدة مكانا للمسرح ، وان رايا كالذي سبق قد يساعد بعد دراسته وتنقيحه على بناء نهضة مسرحية تساير النهضة الثورية الشاملة لكل مرافق الحياة هنا .

اننا نستطيع ان نقول واثقين : اعطنا مسرحا اعطك جيلا قويا ، رقيقا ، فعالا كدم جديد ، اعطنا مسرحا ، نعطك ما تريد .

حلب **وليد اخلاصي**



بسمة الجوكونده

●

هذا «دفنشي» تهاوى بين ريشات   وبات يمزج اصباغا بأنّات
ومولد الفن تغشاه الصعاب اما   رايت فيه الليالي ذات روعات
ان أعسر الوضع كانت فيه متلفة   والعسر في الفن يسر بعد كرّات
قال الفن وللتخليد صورته   هيا انظري بافتكار طي بسمات
فطاب للشفة الحسناء مبسمها   يفتر عن نفحة في سحرها العاتي
معنى على الفم فياض البيان ، وما   باحت به في الهوى آيات آيات

حدّقت ثم اطلت الفكر منشدها   يا بسمة حيّرت حيًّا بأموات
خلف الرواء اوت روح مقدسة   هام الاحبة منها في متاهات
واولع اللص في مسلوب فتنتها   حتى استسرت بآماد خفيّات
العين تسرقها والنفس تعشقها   هي الهنيّة لكن في الشقيّات
ضلّت بتقليدها الالوان وارتعشت   من قلّد الشمس لم يظفر براحات
أرى «دفنشي» قد جنّت براعته   حبًّا بموحية للعبقريات

وقفت في اللوفر المختال اعبدها   كعاشق طاف في الدنيا بآهات
فقلت سبحان من فاقت خليقته   حد الوجود . وما نهنهت همساتي
حتى هممت بتقبيل على شفة   وناب جفني عن حسّي ولمساتي
ايا « جكندة » ما احلاك باسمة   لا غبت في الزمن الماضي ولا الآتي

دمشق   **زكي المحاسني**



محمد رجب البيومي

موسى بن نصير في مهب العاصفة

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

جلس سليمان بن عبد الملك بعد ايام من توليته الخلافة ، جائش الصدر ملتهب الغيظ يفكر في هؤلاء الذين اخلصوا الود لسلفه الوليد ، فكانوا دعامة لعرشه ، وسندا لسلطانه ، وانه ليعض الكف غيظا ان مات الحجاج قبل ان يتمكن من دمه ، فكم كان يتمنى ان يبطىء به الاجل ، حتى يتسنم الخلافة ، فيستقدمه من العراق مصفدا مغلولا ، ثم يذيقه امر وخزات السباب ، واشد داميات القوارص ، حتى اذا انقطع به القول وادركه البهر ، امر به فأريق دمه بين يديه ثم بعث برأسه الى العراق ، فصلب بمراى من مناوئيه ، ومشهد من اعوانه ومريديه ، ولكن من ذا يتحكم في القدر ، وقد اراد ان يفلت الحجاج من يدي سليمان فينقذه الموت من فضيحة مخجلة ، وخزي عظيم .. على ان الخليفة قد جال بفكره فيمن اصطنعهم الحجاج ، واصطفاهم من القادة ، فذكر البطل الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي ، فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذكر الشاب الباسل محمد بن القاسم الثقفي بطل الهند وفاتح بلاد السند ، فابتسم ابتسامة شامتة ، وقال في تشف حاقد : لا بد ان يكون في مصرع هذين البطلين بديل عما فات من دم الحجاج ! ! فلقد كانا من خيرة رجاله ، واعز اعوانه ، بل ان احدهما قد ساعد الوليد على احباط بيعتي وتشريد الامر من يدي ، وهمّ الاخر بذلك لولا ان سبقت كلمة القضاء !! ولا بد ان يسيل دمهما مراقا مهدورا فيعلم الناس ان سليمان بن عبد الملك لا يمتنع على بأسه الصارم، بطل فاتح او مغامر صنديد !!

وهدات نفسه قليلا حين صمم على الغدر بهذين البطلين ، وابتسم ابتسامة المقتدر المعز المذل .. غير ان هاجسا خفيا نبض في خاطره يذكره بما كسب هذان الباسلان للدولة العربية من امجاد !! وما اهديا الى الاسلام من فتوح ، وكاد يستمع الى هذا الهتاف الطاهر ، لولا ان عقارب الحسد لدغته في مجلسه لدغا ثائرا ، فتراجع يقول : وما كسبت انا من فتوح هذين الباسلين ؟ لقد كتبا بجهادهما الرائع مجدا خالدا تذكره الايام في سجل الوليد ، وتحفظه الاقلام في صحيفة غير صحيفة سليمان ! حتى ليقول التاريخ ان عهد الوليد بن عبد الملك ، كان عهد انتصار وفتوح واقبال ... ثم ينتقل الى عهدي فلا يجد ما يقول .. ليتهما كانا خاملين رعديدين ، فلا يفخر ببطولتهما عهد الوليد ، ولئن كانا على غير ما اود فلا بد ان اذيقهما النكال ، غير عابىء بما يتحدث به الناس !!

وطرق الباب حاجبه يستأذن عليه في دخول صديقه يزيد بن المهلب ، ومعه بطل افريقيا وفاتح الاندلس موسى بن نصير !!

فتجهم سليمان في مجلسه تجهما عابسا ، ثم صاح في غضب : ادخل يزيد وحده ، واستبق موسى لديك حتى انظر في امره واستدعيه !!

ودخل يزيد بن المهلب باسما ضاحكا ، فحيا سليمان تحية الخلفاء ، واخذ مكانه الى جواره ، واندفع يقول في تملق واستعطاف :

لقد عاد للخلافة رونقها الخالب ، وبهاؤها الساحر منذ التلق في آفاقها ضياء امير المؤمنين !! ولقد كانت ايام الوليد ــ عفا الله عنه ــ محاقا قاتما كسفت به نجوم ، واختفت في دياجيره كواكب !! ولكن الليل لا يدوم ، فقد اذن الله لشمس العدالة ان تسطع وضيئة باهرة منذ سطوع امير المؤمنين حرسه الله ، فهنيئا للعرب والمسلمين بعهدك السعيد !!

فترنح الخليفة في مجلسه ، وهز الاطراء الكاذب من اعطافه ، فقال في ابتسام مغرور : ولقد كاد كوكبك يا يزيد يختفي في ظلام الوليد ، لولا ان تداركتك بالانقاذ مجازفا بحياة ولدي ايوب !!

فانحنى ايوب انحناءة الشكر والاعتراف بالجميل ، وقال في دهاء : لعن الله الحجاج فقد سوّد صحيفتي لدى الوليد ، ولولا عناية الهية دفعتك يا مولاي الى انقاذي لصرت رمة بالية تصفر عليها الريح !!

فعض سليمان على شفتيه كالمغتاظ ، وقال في اسف : ليتني ادركت الحجاج فأريق دمه بين يديك ، ولئن ذهب بجرمه الى عذاب الله وجهنمه ، فلن يذهب اصفياؤه وعشراؤه من قبضتي الباطشة ، فان لهم يوما عبوسا تمطر سماؤه دما قانيا ، وتنفجر ارضه باللهيب !!

ثم قال يزيد في تماق : هذا بعض ما يستحقون في الدنيا ، ولهم في الاخرة لدى الجبار المنتقم سوء المصير !

فرد الخليفة يقول في تشف حقود : سانتقم قريبا من كل غاشم ابتد سلطان الوليد ، واعانه على الثبات والاستقرار ومن هؤلاء موسى بن نصير وان اصطحبته معك لتشفع فيه ! سانتقم من موسى ! ومن قتيبة ! ومن محمد بن القاسم . ومن كل بطل كسب المجد لتاريخ الوليد !

فاكتأب يزيد اكتئابا ظهرت دلائله العابسة في وجهه ، وقال في ادب رقيق : الامر امر مولاي امير المؤمنين ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ! غير اني اعلم ان موسى بن نصير لم يكن من اعوان الحجاج ! فقد كان يبسط نفوذه غربا ، وكان طاغية ثقيف في المشرق يطيح بالرقاب !!

فنظر سليمان نظرة ماكرة الى يزيد ، وقال في غضب: اين ذهب عقلك يا هذا ؟ الم يثبت موسى بن نصير دعائم الخلافة للوليد في افريقية ، ثم الم يفتح بلاد الاندلس فيغنم آلاف الآلاف من الدرر والكنوز ، ويرجع الى الوليد فيعطيه جميع ما احرز ، ويكتب بذلك صحيفة لامعة من صفحات الجالس على عرش الخلافة بدمشق ! أهذا قليل يا يزيد ؟!

فرد يزيد في تخابث : لقد اساء موسى بلا شك اساءة غير مقصودة ، ولو كان يعلم ما بينك وبين اخيك من شقاق لتريث قليلا في الفتح والانتصار ، ومن اين له ان يعلم ، وهو نازح بعيد ، واسرار القصور مغيبات محجبات !

فصاح سليمان في غضب : أتخدعني يا يزيد ؟! لقد هم الوليد بخلعي من ولاية العهد وتحدث في ذلك مع ولاته وعماله ، وبادر الحجاج بالامتثال فاعلن الموافقة واخذ يحقرني في العراقين ، ويختلق عني شتى الاراجيف ، ومثل هذه الانباء لا بد ان تصل الى امير فاتح كموسى بن نصير ، يحتل امارة ممتدة الاطراف ويتنقل في فتوحه من مضمار الى مضمار !!

فنظر يزيد نظرة المتوسل ، وسأل في ادب لطيف : أيمكن ان نسأل موسى عن مبلغ علمه ، لنقف على ما لديه من انباء ، فلعله في مغتربه النازح بريء بريء !!

فوقف سليمان في مجلسه غاضبا ، وصاح : لقد راسلته شخصيا في اواخر عهد الوليد ، وطلبت ان يرجىء حضوره بالغنائم والسبايا ، اياما معدودات ، حتى يفارق الوليد هذا العالم ، فيأتي الي ، فأرث انا الكنوز والاموال ، واضيف مجد الفتوح الى عهدي السعيد ، ولكنه اسرع وبادر ليبهج الوليد !

فابتسم يزيد ابتسامة ماكرة ، وقال في استفهام : من يدري لعل الرسالة لم تصل الى موسى ، وهو عن كثب منا ، أفتأذن له يا امير المؤمنين !

فقال سليمان في غلظة : سآذن له ، لترى عقوقه وجحوده ، فتقضي عليه بشر المآب يا يزيد ، ثم صفق بيده يطلب من الحاجب ادخال موسى مهانا غير مكرم !

فحضر القائد اسيفا ضارعا ، تعلوه كآبة عابسة ، ثم انحنى في استكانة مستسلمة يحيي امير المؤمنين !

فقال سليمان في غطرسة متعالية ، وشموخ متكبر مقيت : الم تصلك رسالتي ايها الآثم الظالم ؟ فكيف خالفتها وبادرت بالحضور ؟!

فرد موسى في تؤدة هادئة : شهد الله لقد وصلت الي رسالة امير المؤمنين حرسه الله في منتصف الطريق ، ومعي من السبايا والغنائم والاسلاب ما لا يدخل في نطاق ، فاذا كررت راجعا الى الاندلس تمرد الجنود ، ونهب كل قائد ما تحت يده ، ثم ساح في مضطرب الارض بذخائره فلا اقدر على احتجازه ، واذا وقفت حيث انا بين افريقيا ومصر وبين قبائل البربر وحشود الروم ، فسيختلط الجند والسبي بالناس ، وربما استوطنوا هناك مكانا لا اقدر على انتزاعهم منه ، ويتعذر علي ان اصرفهم عنه .. واذ ذاك لم اجد بدا من المسير !

فقال سليمان في غيظ : لم تجد بدا من المسير لتسعد الوليد بما يدخل عليه المسرة والانتعاش، ولتشقيني بالغيظ والانقباض دون اكتراث لواجب او تفكير في مصير ....

فاطرق موسى لحظة ثم رفع راسه في هدوء : رفقك يا امير المؤمنين فان ما فتح من بلاد الاندلس اقل بكثير مما لم يفتح بعد ، ولئن اسعدني الله بعفو الخليفة ورضاه، لانهض على رأس الجيش بالاندلس ، ولافتحن كل مكان لم تطأه اقدام العرب من قبل ، فقد كان في نيتي علم الله ان استحث الغزو مواصلا دؤوبا فاخترق المدن الافرنجية، حتى اعود الى المشرق عن طريق القسطنطينية ، واذ ذاك ارجع الى امير المؤمنين سليمان باضعاف ما رجعت به الى الوليد ، واضيف الى عهده الزاهر من الفتوح ما لا يقاس به عهد اخيه !!

فتنمر سليمان في مجلسه ، وقال في استهزاء : ويحه! يستميلني بمعسول الاحلام ، ولست ممن ينخدعون ! ولا بد من الانتقام العنيف !

فاطرق موسى ولم يجب ! وصاح سليمان بيزيد ! لقد اعترف صاحبك بوصول رسالتي اليه ، ومعصيته لرأيي فماذا تقول ؟

فقال يزيد في ادب : تلك جزيرة فادحة دون نزاع ، ولكنها لم تكن عن قصد خبيث ، ولئن اطال الله في الاجل ليخدمن امير المؤمنين باضعاف ما خدم به الوليد !

فقال سليمان : ان موسى خادم لئيم : أفيخدمني وقد عصى سيده وولي نعمته ، معاوية بن ابي سفيان ؟

فرفع موسى رأسه في ادب وقال : متى كان ذلك يا امير المؤمنين؟! لقد كنت عبد معاوية المطيع، وكان رحمه الله يقدر طاعتي وولائي فغمرني بخيره الجزيل !

فاجاب سليمان في جفاء غليظ : لقد تناقل الناس

عنك انه دعاك الى حرب علي بن ابي طالب في موقعة صفين ، فلم تشأ أن تطيع ؟

فأجاب موسى في صراحة مهذبة لا ينقصها الثبات : ذلك حق يا امير المؤمنين فقد قلت لمعاوية رحمه الله ان المحارب لا يؤدي واجبه في الميدان دون اخلاص واقتناع !! وان ضميري الحربي لا يأذن لي ان اخوض حربا طحونا بين طائفتين من المسلمين ولو كانت شهد الله من حروب الجهاد لبذلت الروح في سخاء .

فقهقه سليمان كالساخر وقال : كأنك تعتقد ان اتباع علي كانوا المسلمين !

فاطرق موسى الى الارض ولم يجب !! وتدارك يزيد الموقف فقال لقد قبل معاوية رحمه الله استعفاءه عن صدر سمح ، وعفو حليم ! واري ان يعفو عنه امير المؤمنين اليوم احياء لذكرى معاوية العظيم !

فنظر سليمان نظرة ساخرة ثم قال : فيم استخفافك بوالدي عبد الملك بن مروان ايها الصعلوك الحقير ؟

فنظر موسى كالمأخوذ وقال في عجب : حاشالله ان استخف بسيدي عبد الملك رحمه الله ، ولو علم بذلك لاذاقني شر النكال !!

فرد سليمان في سخرية : لقدجاءتني الانباء انك خرجت بالناس حين كنت واليا على افريقيا مصليا صلاة الاستسقاء فأخذت تدعو الله دعوات ضارعة ليرسل الغيث على المسلمين ، فقيل لك : ادع لعبد الملك امير المؤمنين ، فقلت في وقاحة : هذا موقف لا يذكر فيه غير الرحمن ! اصحيح ذاك ؟

فقال موسى في رفق مهذب : نعم يا امير المؤمنين ، فالموقف موقف السماء لا موقف الارض ، ولولا الاخلاص لله وحده ما هطل السحاب !

فتضاحك سليمان وقال ليزيد في استهتار : يتظاهر اللئيم امامي بالخشية والصلاح كأنني لا ادريه !

فقال يزيد بن المهلب مبتسما : لعله صادق يا امير المؤمنين ، ولا عليك في ذلك ، فمن خاف الله امنه الناس!

فانتهز الخليفة رد صاحبه وقال في عجلة : كيف يأمنه الناس وقد فعل بطارق بن زياد الافاعيل ؟

فرد موسى في أدب عفيف : اتاذن لي يا امير المؤمنين فتجهم وجه الخليفة وصاح يقول :

لا اريد ان اسمع حديثك فاسكت على غيظك الحبيس!

فتدخل ابن المهلب ملاطفا ، وقال في توسل : لو تفضل امير المؤمنين حفظه فاذن بمناقشة موسى في مسألة طارق ، لعرفنا المخطىء والمصيب !

فصاح سليمان في غيظ غليظ : الامر واضح يا يزيد ، لقد حسد موسى طارقا على شجاعته وبسالته ، وعز عليه ان يستطيع هذا البربري الباسل فتح بلاد الاندلس بعدد قليل ، فافترى عليه ، المآثم ، وقابل بطولته الباسلة بدناءة سافلة ، وغدر وبيل ! !

فنظر موسى كمن يستأذن في القول على حياء : فادرك يزيد ما بنفسه فقال لامير المؤمنين بأبيك رحمه الله الا اذنت يا مولاي !

فاظهر الخليفة تأففه الكريه وجعل ينفخ في مجلسه كمن يتضجر بصاحبه ثم لانت عريكته بعد لاي فاشار بيده اشارة من يأذن للمتهم في الحديث ، فاندفع موسى بن نصير يقول في هدوء وقور : كان طارق بن زياد ساعدي الايمن في افريقية ، فقد اكتشفت بطولته النادرة وثباته الرائع ، فرميت به الخطوب في معارك حامية ، ومآزق دامية ، واستطاع ان يغنم النصر سريعا في اعجاب وتقدير، وكانت قبائل البربر المترامية ترهب فزعا لسطوته وشدة مراسه ، فما يثور بطن من البطون المتناحرة الحاقدة ، حتى يهب طارقا كالعاصفة فيجعل الثورة طاعة ، والتمرد اذعانا واستسلاما ، ولم يداخلني شيء من الحقد عليه في بسالته وهيبته وهو بين قومه ومعشره من البربر ، ولو كان الامر كما قيل كذبا لامير المؤمنين لخفت على نفسي منه وهو محتم ببني جنسه ولائذ بذوي نسبه ودمه ، ولكني كنت - علم الله - اعجب بفروسيته ، واشيد ببسالته على رءوس الاشهاد !! فتولى قيادة جيوشي في فتح بقية بلاد المغرب ، واستطاع السيطرة على حصون المغرب الاقصى حتى المحيط الاطلسي ! ! ثم قاتل وجالد حتى بلغ (طنجة) قصبة البلاد وام المدائن فحاصرها وافتتحها ، واسلم أهلها على يده ، وصار اميرها المطاع ، أفلو كنت حاسدا حاقدا كما قيل لامير المؤمنين ، استطيع الصبر عليه وهد اسد خادر في عرينه بين اشباله وآجامه وغياضه ! ! بربك ألا نظرت للامر بعين الانصاف يا امير المؤمنين ! !

فقال سليمان في ضيق متبرم : ولكن الشهود قد اعترفوا جميعا بأنك حين التقيت به في مدينة (استرقة) لاول مرة ، وقد ترجل عن جواده ، ونهض قائما بين يديك، يحييك تحية الجندي للقائد الآمر ، .. جابهته بالملامة المؤذية والنقيصة المخزية امام عسكره ، وبالغت في تهجينه، ثم ضربته بالسوط ، وغللته بالقيد مع ان الاندلس فتحت على يديه لا على يديك ! !

فأجاب المتهم في قوة ثابتة لا يشوبها تردد والتواء : شهد الله لم اضرب طارقا بسوط ، او اغل يده في قيد !! ولكني سقت اليه بعض الملام لامر خالفني فيه ، اذ كنت اوصيته ان يقف حيث امر حتى تأتيه الامداد ! ! ولكنه خالف الامر فاستوجب مني بعض الملام ! !

فصاح سليمان في لهجة راعبة : لا ام لك يا موسى ! امثلك يموه عليّ الاحاديث ، لقد سارعت اليه فوجدته توسع في الفتح على احسن ما يرجوه قائد مقدام ! ! فجنى لك خير الثمار من ايسر طريق ، دون ان يحصل ما تتوقعه، كاذبا من وثوب مكيدة او نشوب ثورة ! ! وقابلته وقد تم كل نجاح على يده ، فلم الملامة والتشهير ايها الرئيس الحقود الخداع ؟ !

فواصل موسى حديثه في هدوء ـ وكأنه لم يسمع سباب امير المؤمنين ـ فقال في جراة ثابتة : ان اوامر القيادة في ساحة الميدان لا بد ان تطاع يا مولاي ، فاذا تجرا جندي على مخالفتها لسبب ما يرتئيه فقد استوجب الملام ! وهبه خالف ووفق ، فلا يبعد ان يؤمر مرة اخرى فيخالف ويستعصى عليه النجاح فتكون الهزيمة الشنعاء!!

فصاح سليمان متبرما : صه يا لجوج ، لقد كشفنا طواياك ! !

فقال يزيد بن المهلب في رفق مستعطف : لقد اخطأ موسى يا امير المؤمنين ، ولكنه المسئول المقدر لعواقب الامور ! افلا تشمله بالمغفرة والرضوان ! !

فتجهم سليمان في غلظة وقال: أأشمله بالصفح والغفران، وقد سرق الغنائم ، وسلب الاموال ! !

فقال موسى في ضراعة : اين هذه الاموال التي قيل لك عنها يا امير المؤمنين ، ولو كنت سرقت شيئا او اغتصبته لاتيت به معي ثم اعطيته الى خاصتي من الاقارب والاشياع! ان منزلي امامك ، واقاربي تحت قبضتك ! ! ولك ان تبحث في كل فج عما يمكن ان اتستر عليه ! ! ولن يغلب احد سلطان امير المؤمنين .

فصاح سليمان محتدا .. وراس والدي عبد الملك انك لسارق مغتصب حقود ، ولقد كنت على ان افصل رقبتك عن جسدك لولا شفاعة يزيد ! ! وهأنذا أهب لك حياتك من اجله وحده ! على ان تدفع سريعا ما اغتصبت من مال المسلمين ! !

فقال موسى في يأس : لم اغتصب درهما واحدا يا مولاي ! كذب ما قيل ، كذب ما قيل ؛ فعبس سليمان في وجهه عبسة منكرة ، والتفت يصيح بيزيد : امامك صاحبك، قد حفظت دمه من اجلك وحدك على ان اتسلم منكما ستمائة وتسعين الفا ذهبا في حوزته ! ولئن لم يحضر ما قدرته عليه ليكونن من الهالكين .. فرد يزيد في امتنان : الشكر والنعمة لامير المؤمنين .

* * *

ثم خرج الرجلان يطوفان بالقبائل ، ويلمان بشعاب الاحياء ، يجمعان من كل اريحي كريم ما تجود به نفسه من العطاء ! وفيهم من يتبرع لسخائه بألف دينار ، ومن يقذف على مضض أليم بدرهم واحد ! ! وقد دفعت قبيلة لخم وحدها تسعين الفا ، ودفع آل المهلب قرابة ذلك ! !

ولبث القائد المظفر يتسول ويستجدي الايدي من الرؤساء والاذناب حتى حصل على اكثر من النصف المطلوب، واقبل مع صاحبه يزيد يتشفعان في الباقي في ملق واستعطاف ! فعفا الخليفة بعد تشدد غليظ ، وارسل لعناته الغاضبة على القائد المظلوم ! فسمعها في صمت شاحب كئيب ، ثم تسلل حزينا باكيا الى حيث لم يسمع عنه بعد ذلك تاريخ ! ! وخيم محاق بهيم ! !

الفيوم — **محمد رجب البيومي**

عيناك والهموم

عيناك يا تلهف اليباب للمطر
يا رحلة العبير في خواطر الزهر
يا غزلا يصوغه المساء للقمر
يا نغما مشردا ، يتوق للوتر
عيناك يا جزيرة الفيروز والدرر
عشقت ، يا صديقتي ، من اجلها الخطر

عيناك والحياة والحزن والهموم والضجر
اعبدها ، امقتها ، كأنها قدر !
كأنها اله

صديقتي سغبت الف عام
بحثت عن طعام
رحلت للجبال ، للانهار ، للبحار
وعدت يا صديقتي من رحلة الدوار
لا شيء في سفينتي ، لا خبز ، لا ثمار
حتى ولا محار

وكنت في الميناء تعبرين كالغمام
كرحلة الحمام
كغابة مثقلة بالطيب والنماء
وكانت الاحزان في عينيك كالمساء
ثقيلة الهموم ، كالدعاء
وكنت يا صديقتي سغبت الف عام
عطشت الف عام
فرحت كالغريق لاحت دونه سفينة الرجاء
مزجت في عينيك خبز الحزن بالدموع
شويته في موقد الفؤاد والضلوع
وقلت يا للخصب ، بعد اليوم ، لن اجوع

صديقتي ومرت الايام
كأنها هنيهة في خاطر الزمان
غرقت بالطيوب بالخمور بالشموع
وذاب في محاجري تبلد الصقيع
واليوم ، يا صديقتي ، اتوق للرجوع !!
فالحزن ـ يا ويلي ـ نما ، برعم في الضلوع !!
وانجب الزهور ، والثمار ، والفروع
فخيم الصقيع ، والهفاه ، خيم الصقيع
عفوا ، اذن ، ان لج بي شوق الى الرجوع
عيناك يا صديقتي والحزن والحياه
والشعر والهموم
وكل ما تبدعه معاصر الكروم
اعبدها امقتها كأنها قدر
كأنها اله

عترون ـ لبنان — **فضل الامين**

من مجامر الصخور

« مجامر الصخور » كتاب معد للطبع يضم مختارات كتبت بين ١٩٤٦ – ١٩٥٢

بقلم ثريا ملحس

من غيوب امسياتي ، من جوارح دني، من الام احلامي ، قبس متأرجح . دوحات غدي ، جذورها مدفونة في الغيوم ، اسقيها من عصارات روحي، ومن مجامر الالام .
اوراقها الخضراء ، ترتمي على كفي ، فترهقني ، ومن انامل ازحزحها ، فتسقط على التراب اعمدة ، تشيد هياكلي ، يفوح البخور في ارجائها .
وتدق النواقيس في ساحاتها .
وتفتح الابواب لتضمني اليها ، الى هياكلي ، الى الخلود .

*

ما بك يا نفسي ؟ لم الانين ؟ .. احيا بجوارحي واعصابي ، واغذي احرفي منها .
وحولي عناكب تنسج على شبابيكي الخيوط ستائر .
ما اوهن الستائر ! نفخة من فمي احطم ما ابنته السنون .

*

... في زاويتي اناجي الليالي ، ونجوم الزمان ترد علي وتحوم .
وزورقي يطوف البحار ، يروم صيد الجواهر والمرجان ، وصيد النجوم .
انسج من حولي ، من قوارير غدي ، نجوما مثل نجوم السماء .
وابعث لها راعيا مثل قمر الليالي ، وارشها ، ازركشها ، بالالام قبل ان يروع بدر الزمان .

*

تمرد يا صاحبي ، حتام انعطاف قامتك ؟ قف ... تمطى لتعطو افاق العلى ، لا تتهدم في تياك الزاوية اشلح عنك الجهل وسر مسرعا ، لا تنثني .
تمرد ... تمرد ... أزعق امام المرآة فتنزوي عنها قطراتك الفضية ، تعمى ، فترى انت نفسك في عريها .
حطم قيودك ، واستعمارك
حطم خنوعك ، وطاعتك
جفف دموعك ، وقو قلبك
هز اركان دارك
وانفض عنك غبار الزمان
واقبض على الزمان وسره معك

فتت الصخور الصماء
تمرد ... تمرد ... وارسل العواصف النكباء ، تطفىء المصابيح الضعيفة ، الشحيحة
وتخلع الخوف من القلوب المتجعدة
وتملع الجهل من الضلوع الواهية .
دع دنياك ، تعج بالنور ، بالحياة

*

شتاؤك يا الهي ربيع
صيفك ربيع ، خريفك ربيع
اخضرار الربيع يا طفولتي ، يا مهد العيون



علقت باهدابك الرقراقة ، وانا اتسلق اغصانك الميادة .
ومن تلك الافاق الصفراء حنين وغيوم مسبحة بالبخور .
تفتر براعمك المنثنية بعضها على بعض، عن زهور بألف لون ولون .
وتمتص الفراشات الصبوح والغبوق من كاسات الزهور
وتتمد يدي الى النجوم ، ابني منها عرزالي ، والطبيعة حولي تؤلف من خيالي وخيال الكائنات ملحنة ربيعك وربيعي
تعال ... تعال معي ابني لك ولي عرزالا من النجوم ، من خيالك وخيالي .

*

... دروبي اريج الزهور ، واوتاري انهار الدنى ، تتمرغ بشمس الغروب .
حكاياتي كهديل الطيور ، ورقصات الثلوج ، ونبضات قلوب المتيمين .
والليل راح نشوان ، كلما كلت له كأسا قال :
اترعي ... اترعي انا هيمان
يا ليل ، اناديك يا ليل ، دني جفاف ..
دناني كلها جفاف .
قال : ويحك يا راهبة ، قتلت ... قتلت ... قتلني الصدى .
يا ليل ، اناديك يا ليل ، لا تذهب عني ، لا تمت يا ليل .
هرعت الوي دناني ، اعصرها واحدة ، واحدة ، تكسرت دناني كلها لانها جامدة ، كالغصون الناشفة .
فانحنيت على ذاتي ، احسس دروبي، كل دروبي اشواك ، قرون من الاشواك .

*

في هيكلي اظلال الشجر وصلابة الصخر ، واعماق المدى .
بخوري عبير الربيع، احمله في مجامر الصخور ، صفتها من قلبي
ويدخل الهي في هيكلي مع الغروب كل ذرة تصلي
وفي الكون عيون ، عيون لا تنشف ، تتدفق بأمواج الازل، واياد « اندين » سابحة من بين الموج ، تروي هيكلي ، من اخضرار غدي وخيال انشودتي .



دار الحديث حول الزواج . واجمع المتحدثون ــ وهم فئة من الشباب ــ على ان الزواج خير عصمة للفتى من الزلل ، واكد احد المتزوجين انه سفينة النجاة للانسان ، فهو ينقذه من الوحدة ، ويأتي بالبنين زينة الحياة الدنيا .. ولكن ازمته قائمة الان بسبب متطلباته الكثيرة ، وغلاء المهور . وهذه عقبات كأداء لا يستطيع الشاب اقتحامها ، فهو ينهي دراسته ، على اقل تقدير ، في الخامسة والعشرين من عمره ، ولا بد له من عدة سنوات ليبني مستقبله ..

والحق ان الازمة مستعصية ، ومعالجتها عسيرة ، لان الاسر تتمنى زواج فتياتها ، وتتلهف عليه ، وعندما يبرز الخطيب الكفء ، ويتقدم اليهم ، تنهال الطلبات الكثيرة مع المهر الفاحش مما يجعل الشاب يبوء بالخيبة والخذلان .

انها ازمة شديدة ولا بد من معالجتها . واقترح احد الحاضرين ان تتدخل الحكومة ، وتعمل على تحديد المهور صيانة للشباب من العبث ودرءا للمخاطر . وندد اخر بهذا الراي زاعما انه لا بد من تربية اجتماعية جديدة تبصر المواطنين بالحياة الحقة .. وان قيمتها ليست بالرياش الفاخر ، والمجوهرات الغالية .

وهكذا لج الجدل ، واحتدمت المناقشة ، وحمل احدنا على شبابنا الذين يذهبون الى الدراسة في الخارج ، ثم يعودون الى الوطن مصطحبين معهم زوجة اجنبية ... عقليتها تباين عقليتنا ، ومفاهيمها لا تتسق مع مفاهيمنا ، ولا بد ان يكتب الفشل لمثل هذا الزواج .

وتشعب الحديث ، وحمي وطيس الجدل ، وسيطر الدكتور يوسف على الموقف .. وقال : لا شك انكم تعلمون انني متزوج بأجنبية . واعترف لكم انني سعيد بها الى ابعد حد ، فهي تفهمني وتحبني ، واحالت بيتي الى جنة وارفة الظلال تمرح فيها طفلتنا الحبيبة ، وارى كل السعادة في ضمها الى صدري ، ونهل القبل من خدها الصغير .

وسكت قليلا وسهمت نظراته كانه يستجمع ذكرياته ، ثم تابع قائلا : ساروي لكم ظروف زواجي بهذه الاجنبية لتحكموا علي ..

واشعل لفيفة ، ونفث دخانها بسرعة ، وتنحنح ، ثم قال : انهيت دراستي في انجلترا ، وعدت الى وطني الحبيب ، وتشرفت بخدمة العلم ، وبعد الانتهاء من هذا الواجب المقدس فتحت عيادة متواضعة ، وبدات اكافح لابني مستقبلي . لقد كنت في الثامنة والعشرين من عمري .

المهر

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

وكان نداء الجسد يلهبني ويقلقني .. ولا اكتمكم ان طبيعتي تابى الحرام .. فقد امضيت سنوات دراستي في اوربا لم اقارف في خلالها اي منكر .. ارجوكم .. لا تضحكوا .. هكذا طبيعتي .. انني اخاف الله ، ولا يمكنني ان اقدم على عمل نهانا عنه في كتابه العزيز . ولهذا رايت ان الوقت حان لزواجي . ودلوني على أسرة طيبة لديها فتاة كريمة التربية ذات جمال لا بأس به . واستطعت ان ارى هذه الفتاة ، وهي في طريقها الى بيتها . ولا اكتمكم انها راقتني . وتحريت عنها ، فعلمت انها مثال الطيبة والوداعة والرقة .. شانها شأن اكثر الفتيات في بلدنا الحبيب . وتوكلت على الله ، وذهبت الى والدها ، وقدمت له نفسي ، وعالنته برغبتي في الزواج بكريمته ، ورحب بي ، ثم استمهلني اسبوعا ليبحث عني . وعدت اليه في الموعد المضروب ، واخبرني انه موافق لان جميع من اتصل بهم اطروا اخلاقي ، فشكرته. وقلت : تأكد انني سأبذل جهدي لاسعد ابنتك .

ــ هذا مؤكد .

ــ ومتى تريد ان يأتي أهلي ليخطبوها رسميا ؟

ــ ساعة تشاء .

ــ غدا ..

ــ لا مانع .

وجاء اهلي ، وقراوا الفاتحة . واكدت لي والدتي انني احسنت الاختيار ، فالفتاة مثقفة ، وذكية ، وجميلة . وحمدت الله على هذا التوفيق .. لقد كافاني ربي على عفتي بهذه الدرة الثمينة .

واخبرت والدها برغبتي في التعجيل بالزواج في اقرب وقت ممكن ، فسكت هنيهات ، ثم قال : لم نتفق على التفاصيل بعد يا دكتور يوسف .

ــ انا تحت امرك يا عمي .

ــ المهر خمسة عشر الف ليرة .

وتصدع كبدي . انى لي هذا المبلغ .. وانا الطبيب المبتديء ..

وقلت له : هل هذا المبلغ مقدم المهر أم مؤخره ؟

ــ مقدمه .. والمؤخر مثله .

ــ انت تعلم انني طبيب ناشيء.. ولا املك هذا المبلغ .

ــ وهل تريد ان تتزوجها بدون مهر ؟

ــ عندما ابني مستقبلي ساعوضها اضعاف هذا المبلغ .

ــ يستحيل ان تخرج ابنتي من البيت قبل دفع هذا المهر .

ــ كل ما استطيع ان افعله الان تأسيس غرفتين ..

ــ لا .. المهر اولا .



ــ سأكتب لك وثيقة به ادفعه لك بعد ثلاث سنوات . ورنت ضحكته ساخرة بسذاجتي ، وقال : في حياتي لم اسمع بمثل هذه الحكاية .

وحاولت بكل ما اوتيت من بلاغة وقوة اقناعه .

وقلت لـه : ان شبابـي واخلاقي وعلمي ومستقبلي اضعها جميعها في سبيل هذا المهر . ولكنه ابى واستكبر، وصعر خده وهو يقول : اختها اخذت نعس هذا المهر . هل تريد ان تكون خطيبتك اقل منها شأنها ؟

وفسخت الخطبـة .. وتألمت . ولعنت هذه الموازين التي يزنون بهـا اقدس عمل في الدنيا . وانكفات الى عملي فينة من الزمن . غير ان نـداء الجسد كاد يمزقنـي .. لـن اطيل عليكم .. لقد جربت حظي مرة ثانية وثالثة ، وتتكرر نفـس المأساة .. يرحبون بي ، ثم يطلبون مهرا خياليا، فانكص على عقبي لانني لا املك هذا المال .. ولم ترض اسرة بأقـل من عشرة الاف ليرة ولا بد من عشرة الاف اخرى لتاسيس البيت مـما جعلني ايأس من فكرة الزواج . واستغرقت في عملي . ووجدت انه امامي على الاقل خمس سنوات من الكفاح الدامي لاستطيع ان اجمع مثل هذا المبلغ الا اذا لجأت الى الغش .. وحاشاي ان افعل هذا .

وثرت على هذه الاوضاع المتحجرة في بلدنا . الم نتحرر من هذا البهرج الزائف ؟ هل الفتاة سلعة تعـرض ، فينالها من يدفع الثمن . فيا لبؤس امثالي ممن لم يتوفر لهم المال.. ومن خلال هذا الضباب الصفيق الـذي يجهم افقي برقت في ذهني خاطرة رضية انارت طريقي ... لقد تذكرت الجامعة التي درست فيها .. فهناك لي صديقـة عرفـت فيهـا الاخلاق الكريمة، والعفاف، والطهر ذات جمال ساحر جمعتنا صفاتنا المشتركة في تفاهم مكين . وكنت دائما اقول لها : لو لم تكوني انجليزية لكنت اتمنى ان تكوني لي زوجة ؟

وتقول ضاحكة : هل تكره الانجليز الى هذا الحد ؟

وكثيرا ما كانت تدعوني الى البيت لأجد في كنفـه الـدفء والراحـة والحنان ، فأسرتها رقيقة مهذبة .. رهي وحيدتها .. وكنت دوما احلم في اسرة مثل هذه الاسرة في تفاهمها وسعادتها .

لقد تذكرت اليزابيث .. وشعرت بروحي تحن اليها ، واستعدت ذكرى الايام الخالية التي قضيناها معا .. والحق انني لم ار فيها سوى الفضيلة والسمو .. وبرقت صورتها امامي . وخيل الي انها تبسم لي ، وتدعوني اليها .. لقد كانت تحبني حبا ملك عليها مشاعرها .. وعندما عدت الى سورية ذرفت الدمع بغزارة، وافهمتني انها لن تتزوج حتى تقطع الامل مني. وصارحتها بانني لن اتزوج الا واحدة من بنات بلدي .

وتوالت رسائلها الي محملة بحبها واخلاصها.. وكنت لا ارد عليها لانني في الواقع كنت اريد ان تنساني .. وانا لا اريد ان تتألم لحظة واحـدة لاجلي .

ازدحمتني هذه الذكريات الملحة .. ووجدت نفسي اكتب اليها واخبرها بانني افتتحت عيادة صغيرة ، وانا في طريقي الى النجاح .. ولقـد فكرت فيها كثيرا ، ووضح لي انني احبها.. فمئات من الذكريات المشتركة تجمعنا برابطة شديدة .. ولهذا اتقدم اليها طالبا يدها لنعيش في بيـت يظلله الحب ، وتخفق فيه السعادة .. فاذا كانت لا تزال ترغب فـي زواجـي ، فسأرسل اليها تذكرة طائرة لتأتي الي.

واودعت الرسالة البريد. وساورتني الهواجس . لعلها غيرت رايها لقـد ابتعدت عنها اكثر مـن سنتين فـي خلالهما لم ارسل لها سوى رسالة.. وبطاقتين اهنئها في عيد ميلادها .. ثم هي طالبة في كلية الطب . وليس ببعيد ان تكون عندها الرغبة في انهاء دراستها ، ولا سيما انها قطعت شوطا بعيدا فيها . واتضح لي انني احبهـا حبا جما استحـوذ على مشاعري ، وفاض بين جنباتي . وهرعت الـى صورتها العزيزة اتامل محياها الذي تترقرق فيه الوداعة،ووجهها الزنبقي المشرب بحمـرة صافيـة وعينيهـا البريئتين . ولعنـت نفـسي علـى ترددي .. يا ليتني تزوجتها هناك.. وجئت بها الـى بلدي لاسعـد بها . والواقع ان الخيبة التي اصابتني من بنات بلدي لاجل المهر طعنتني فـي صميمي .. لقد احتقرت المال الذي يراه الناس كل شيء .. لا يعترفون بالقيم الخيرة التي تجعل الحياة ذات نضارة ورواء

ورحت اترقب البريد بشغف ، واصبحت اتردد عـلى دائرته اسال المـوزع عن الرسالـة المرتقبـة .. ويعرونـي الالم عندمـا يهـز راسه بالنفي .. وفوجئت ذات يوم برسالة مضمونة منها .. فتناولتها في شغف، وضممتها الى صدري ، ففيها كـل آمالي .. وعندمـا اوشكـت عـلى فضها ، ألمت بي رعشة .. وترددت في فتحها .. لعلها تحمل الي اعتذارا. واخـيرا مزقت الغـلاف . وقرات الرسالة ، فتراقصت امامي المنـى حافلة معسولة .. لقد اخبرتني انها كانت اسعد مخلوقة في الدنيا عندما قرات رسالتي .. لان حبها لي ظـل يندبها بعد سفـري .. وكثـيرا ما تقدمت اليها عروض مغرية في الزواج بيد انها رفضتها جميعا لانها آلت على نفسها ان تهب حياتها للطب ولخدمة المرضى . وكانت الرسالـة فياضة بالحب والاخلاص .. واخيرا تطلب الي التعجيل في ارسال تذكرة الطائرة لانها لن تستطيع الانتظار طويلا .. ثم تخبرني في استحياء ان اهلها رحبوا بهذا الزواج .. وتمنوا لها السعادة ، واعطاها والدها بائنتها خمسة الاف جنيه، وهي في حوزتها.. وستصحبها معها لنستعين بها على بناء مستقبلنا.

وغمرتني السعادة ، وارسلت لهـا تذكرة الطائرة وابرقت الـي بميعاد مجيئها، فأسرعت الى المطار في الموعد



عد لي بقلبي

سأمضي وأترك قلبي لديك … فصونيه حتى أعود اليك
سأرحل بالجسم دون الفؤاد … وارجع ألقاه بين يديك !
فقلبي وديعة حبي العميق … فصونيه كالنور في مقلتيك
أضل بلجة هذي الحياة … وأرسو بأمن على شاطئيك
أعود لاسمع همس المناجاة … ذابت نشيدا على شفتيك
وأحكي فتصغين في لهفة … لكل حديث اقص عليك
سأمضي واترك روحي لديك … ترف ضياء على وجنتيك
سأمضي وصوتك في مسمعي … واترك نجواي في اذنيك

***

تركت فؤادك عندي ولكن … اخذت فؤادي مني بديله
وقلبي حنان وود وعطف … ولن تلقى بين القلوب مثيله
فعد لي بقلبي وعد لي بحبي … لنرجع تلك الليالي الجميله
ليالي فيها سهرنا نحكي … حكايات شوق ووجد طويله
سأمضي وابقى مع الذكريات … أعلل نفسي بألف وسيله
غدا سيعود بشوق جديد … ولهفة حب تنير سبيله
غدا زورقي سوف يرسو بشطي … رضيت على الرغم مني رحيله
سنرسو سويا بشط الاماني … وتجمعنا الامسيات الظليله
لقاء الاليفين بعد الغياب … على ربوة في ظلال الخميله

مصر الجديدة — **روحية القليني**

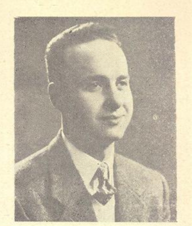
المحدد، وانتظرتها وكلي شوق اليها.. وهبط المسافرون واحدا تلو الاخر.. وقلبي في خفقان، وعواطفي في ثوران.. ورأيتها تتهادى بقوامها الرشيق على سلم الطائرة، وهي تتطلع الى المستقبلين، ولوحت لها بيدي، وبصرت بي، فأشرقت السعادة في وجهها النضير، واشارت الي بيدها فرحة.. والتقينا.. وجنحتني السعادة، وانا اتأبط ذراعها، وهمست في اذني: ما اجمل بلادكم. انها الفردوس المفقود.

— كل ما ارجو ان تكوني فيها سعيدة.

— انا اسعد الناس ما دمت معي.

وسكت الدكتور يوسف لحظة، ثم قال: مضى على زواجنا خمس سنوات. واقسم لكم انني في كل لحظة يزداد حبي لها لما اراه من تفانيها واخلاصها وحدبها علي، وسهرها الدائم على راحتي، ومساعدتها لي في عيادتي.. ويكفي ان اقول لكم ان والدتي تشكر الله عقب كل صلاة لانه هداني الى هذه الزوجة الصالحة... واخيرا ارجوكم.. لقد اطلت المكوث معكم.. انني في شوق شديد الى زوجتي، والى ابنتي.. واستودعكم الله.

طرطوس — **محمد حاج حسين**



فاضل السباعي

مع القاص فاضل السباعي

بقلم عيسى الناعوري

* * *

اكتب هذا المقال وامامي اربع مجموعات قصصية لصديقي القصاص الحلبي الشاب فاضل السباعي ، انتهيت اخيرا من قراءتها والاستمتاع بها ، بعد ان كنت قد رافقت صاحبها طويلا على صفحات الصحف الادبية . هذه المجموعات هي بحسب ترتيبها (الشوق واللقاء — ضيف من الشرق — الليلة الاخيرة — نجوم لا تحصى) . وله كتاب اخر بعنوان (مواطن امام القضاء) كان قد صدر في سلسلة (اقرأ) ولم اتمكن من الاطلاع عليه ، ولهذا اكتفي بدراسة السباعي القصاص من خلال مجموعاته الاربع التي بين يدي الان .

واول ما يهمني ان اذكره في مستهل هذا المقال هو ان كل عنوان من عناوين هذه الكتب هو في الاصل عنوان لقصة من اقاصيص الكتاب نفسه ، فـ (الشوق واللقاء) هو عنوان الاقصوصة الاولى من الكتاب الاول للسباعي ، وقد جاءت في شكل تمثيلية صغيرة ، ابطالها : فتى ، وصدى فتاة ، ومكانها : حدود الارض السليبة من فلسطين وزمانها : منتصف الليل . وهي كلها نجوى حارة بين فتى لاجىء وارضه السليبة ، يتبادلان فيها اشواق اللقاء ، ويتواعدان عليه . ويتردد الصدى من قلب شجرة نبتت في مكان الدماء من فتاة كانت حبيبة للفتى اللاجىء ، وبقيت هي في الارض المغتصبة، يغتصبها الاعداء ثم يفتكون بها ، بينما يتشرد فتاها عن ارضه ، فيظل يعتلج به الشوق اليها والى الوطن الذي ظل يضمها حية بعد الفراق ، ثم احتضنها رفاتا بعد ان قتلها الاعداء وهي تحاول اللحاق بأهلها المشردين لتستثير فيهم نخوة الثأر . ويختم السباعي اقصوصته او نجواه الحوارية بقول الصدى : « الى اللقاء يا شعبي المشرد ... سيظل الشوق اليك يقتلني الى يوم اللقاء » .

و « ضيف من الشرق » هو عنوان القصة الاخيرة من الكتاب الثاني للسباعي ، وهي في الواقع اطول اقاصيصه جميعا في كتبه الاربعة ، واذا لم تكن هي اقواها صياغة ، واحسنها اسلوبا ، واجودها اداء ، فهي واحدة من اجود ما كتب السباعي حتى اليوم . وهي قصة فتى شرقي يذهب الى المانيا لاجل الدراسة ، وهناك يمضي لزيارة صديق كان قد عرفه سائحا في حلب ، ثم اراد ان يراه في بيته بعد عام من ذلك اللقاء الاول ، وفي بيته يجد زوجته الالمانية الجميلة ، فتدعوه الى الانتظار حتى يعود زوجها من عمل له في المدينة ، فيطلب اليها ان تسمح له بالاستلقاء والراحة ريثما يعود زوجها ، وبعد ان يستلقي قليلا على اريكة في المنزل تباغته (هيلدا) زوجة صديقه داخلة عليه شبه عارية « تحدو بها شهوة عارمة تنطق بها عيناها » ، وتهم بأن تستلقي على الاريكة الى جانبه لتستمتع بمضاجعة الفتى الشرقي ، الذي يحمل الى خيالها كل غراميات الف ليلة وليلة . ولكن الفتى الشرقي الذي يستولي عليه الذهول والدهشة ينفر ويتمنع حفظا لشرف الصداقة، ويأبى ان يحقق لها رغبة ، لكي يعلمها ان الشرقي ليس مجرد جسد ملتهب بالشهوة كما يصوره للغربيات خيالهن ، بل هو نبل ، وخلق امثل ، ووفاء للصديق .

و « الليلة الاخيرة » هي كذلك اخر اقصوصة من الكتاب الذي يحمل عنوانها ، وهي قصة اجير مقهى سكير ، لا يرى الحياة في غير الشراب ، ويحاول بطل القصة الثاني — وكان حلبيا موظفا في دمشق — ان يردعه فلا يفلح . ثم يجيء يوم يتقرر فيه نقل الموظف الى حلب من جديد فيحاول ان يحسن الى صديقه اجير المقهى بمبلغ يبتاع له به معطفا يقيه برد الشتاء اللاذع ، ولكنه يمر في المساء بقرب المقهى ليودع صديقه ، فاذا به تحت شجرة المقهى ، وامامه مائدة عامرة بالشراب والمازة ، وهو ميت الى جانبها من شدة السكر الذي اتلف احشاءه على مر الايام . لقد كانت تلك اخر ليلة يشرب فيها الخمر ، فلن يعيش بعد الان ليذوقها مرة اخرى .

وقصة « نجوم لا تحصى » هي اول اقصوصة من الكتاب الذي يضمها ، وهي قصة طفل يبيع الكعك على باب مدرسة فتطرده الآذنة لانه ينافسها في رزقها ، فيمضي ليبيع الكعك في مرآب ، فينجح اياما ، ثم يظهر للبائع السابق الذي كان قبله يبيع في هذا المكان الموفور الرزق — وكان البائع القديم مريضا طوال اسبوع — فيطرده من مكان رزقه ، فيأبى ان يصغي اليه ، فيضربه ضربا عنيفا حتى

الموت . اما النجوم التي لا تحصى فهي خيالات تبدو لناظر الطفل وهو في حشرجة النزاع الاخير : « البائع الصغير غائب عن وعيه ، لا يحس الما ، الصور تنثال في خاطره حلوة تبعث النشوة : النجوم في السماء لا تحصى ، قطف نجمة كبيرة ذات الق . سقطت عليه النجمة فانفتحت عن هالة من نور ، وضمته اليها في حنان » .

بعد هذا الاستعراض الخاطف للاقاصيص الاربع التي تؤلف عناوين هذه المجموعة السباعية اذكر ان اقاصيص السباعي مستوحاة :

١ ــ من حياة المجتمع الحلبي واجوائه العامة .
٢ ــ من جو مهنة السباعي ، وهي المحاماة .
٣ ــ من تجارب السباعي الخاصة .
٤ ــ من الاجواء السياسية والقومية العربية .

وقد لا يجتمع كل هذه الاجواء معا في كل كتاب من كتب السباعي ، ولكن هناك جوا او اكثر يتكرر فيها جميعا، ذلك هو جو البيئة الحلبية على الاخص ، ثم جو المهنة .

على ان للسباعي في اقاصيصه ميزة البساطة المطلقة ، حتى ليبلغ من هذه البساطة في بعض الاحيان ان تتحول الاقصوصة الى « حكاية » عادية ، او ما ندعوه نحن في الاردن (حدُّوته) . واذا كان هذا موجودا في المجموعات الاربع ، فهو اكثر ما يكون في المجموعة الاولى (الشوق واللقاء) التي اعتبرها الخطوة الاولى للمؤلف في الحياة القصصية . فاغلب اقاصيص هذه المجموعة الاولى قليل التوفيق من حيث العمل الفني ، ولا سيما انه اقاصيص يبرز فيها « الغرض » اكثر ما يبرز فيها « العمل الفني » .

وهناك ناحية اخرى تبرز في اسلوب السباعي القصصي، فقسم كبير من اقاصيصه لا يبدأ من بداية الحادثة التي هي عماد القصة ، بل تأتي الحادثة وتحليلها ، وتحليل اشخاصها في سياق القصة ، بعد ان يكون السرد قد قطع شوطا منها في غير اتجاه الحادثة الرئيسية ، وعندما يصل الى الحادثة الرئيسية يقطع السياق الاول ليدخل في تفاصيل الحادثة وتعليل وقائعها ، ثم يعود في النهاية فيربط الخاتمة بالبداية . وهذه الطريقة حينما تتكرر بكثرة تشعر القارىء بأنه يمضي على وتيرة واحدة (مونوتوني) .

ان فاضل السباعي ، كمحمود تيمور ، يلتقط اغلب اقاصيصه من حكايا الشارع ، حياة العمل اليومية ، ومن الاشياء العادية البسيطة التي قد لا تثير اهتماما : من طفل يبيع المسكة ، او طفل اخر يبيع الكعك ، او طفل ثالث اعمى يحبك وجوه الكراسي ويبيعها ، او بائع يبيع في بسطة صغيرة ادوات نسائية صغيرة ويقابل فتاة في مقام الشيخ الولي ، او من نادل مقهى سكير، او آذنة تطرد الباعة الصغار عن باب المدرسة لئلا ينافسوها في رزقها ، او من عامل نسيج ، او عامل في طاحونة يحب زوجة معلمه ، او من شيخ ضرير يستعطي ويكنز الذهب تحت بلاط الارض في منزله المعتم ، فيباغته انسان اخر يقتله ويستولي على ذهبه ، او فتاة تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة ولكن نظرات رئيسها تظل تلاحقها وتزعجها ، فتظل هي تود ان تصفعه ، واخيرا تصفعه وتترك العمل ، او محام شاب يتوكل في قضية امراة مطلقة ثم تنصرف عنه اذ تعتقد انه يحابي خصمها فتفاجئه في جلسته التالية بتوكيل محام سواه ، او عجوز مسلمة تحب ممرضة مسيحية وترغب في ان تزوجها لابنها ، او محام شاب موظف ، رئيسته فتاة جميلة يحبها ويخجل من البوح لها بحبه لانها رئيسته ، فيهم بترك الوظيفة لما في نفسه من صراع بين الحب والخجل والوظيفة ، حتى تبوح هي له فيطمئن ويظل في عمله .

هذه وامثالها هي مواضيع اقاصيص فاضل السباعي ، واقاصيصه لذلك بسيطة في الغالب بساطة الحياة التي تصورها ، وفيها احيانا مواضيع لا اعرف ان غيره من القصاصين العرب تطرق الى مثلها . ويبدو ان للمؤلف تجارب خاصة من حياة بيئته لم يعرفها غيره من القصاصين في البيئات الاخرى ، فانا مثلا لا استطيع ان اتخيل مثل قصة (الحقيقة وراء الضباب) من مجموعة (الليلة الاخيرة) التي يعيش فيها صاحب الطاحونة وزوجته في غرفة داخل الطاحونة ، وفي الغرفة نفسها موتور الطاحونة ، بحيث يستطيع عامل الموتور ان يدخل الى الغرفة متى شاء ، والزوجة مضطجعة في داخلها في غياب زوجها ليدير الموتور بذراعيه القويتين . فتحبه الزوجة الشابة ، وتمضي معه في علاقات غرامية عنيفة حتى يفتضح امرها مرة .

ولست استطيع ان اتخيل قصة مثل قصة (الجزاء) من مجموعة (الشوق واللقاء) وهي قصة الحمامات الشعبية في الاوقات المخصصة للنساء ، وما يجري فيها من امور لا يبلغ مداها التصور وحده لولا ان هناك تجربة خاصة .

كذلك الاقاصيص المستوحاة من جو المهنة (المحاماة) هي ايضا تجارب شخصية ، اما من حياة المؤلف نفسه واما عن حياة زملائه .

وجميل جدا ان تتنوع المواضيع والاجواء ، بل انه لمن الممتع والمفيد حقا ان يطالع المرء مثل هذه الصور المتعددة الالوان والوجوه ، فيقرأ البيئات الاجتماعية المختلفة ، حتى ليكاد يلمسها لمسا ، او يشاهدها حية ، غير ان السباعي يخلق لبعض اقاصيصه نهايات لا تنسجم مع السياق ، او ليس لها ما يبررها ، فيحوّل القصة في النهاية الى مأساة في حين لا حاجة الى المأساة ، او يخلق لها خاتمة سعيدة في حين ان المأساة اصوب وافضل لخاتمتها . ومن ذلك مثلا ، خاتمة قصة (نجوم لا تحصى) التي جعلها مأساة مع ان لا مبرر للمأساة فيها ، وقصة (الليلة الاخيرة) ولم يكن ثمة من مبرر لموت اجير المقهى المسكين الذي اشترى بالنقود شرابا بدل المعطف ، وظل يشرب حتى مات . كان يكفي مثلا ان يمرض ويحمل الى المستشفى ، وهناك يتوب

عن الشراب ، فيتحقق للمؤلف غرضه من الاحسان ومن النصح والاشفاق . وكذلك قصة (الموعد اللازوردي) من مجموعة (ضيف من الشرق) التي جاءت خاتمتها سهلة جدا بحيث افقدت القصة قوتها وجمالها ، فليس من الطبيعي ان تجلس فتاة عند بركة ماء وتمضي في احلامها السعيدة ، ثم اذا بكل هذه الاحلام تتحقق بنفس الشكل الذي كانت تتخيله في جلستها .

اقول هذا وليس من غرضي مطلقا ان اتدخل في صميم عمل المؤلف وطريقته القصصية الخاصة ، ولكنه انطباعي الخاص على اثر قراءة مجموعات السباعي الاربع ، وقد لا يكون هو عينه انطباع غيري من القراء والنقاد .

وفاضل السباعي من القصاصين المكثرين ، بل ان القصة تكاد تكون حقله الادبي الاوحد ، وطبيعي ان يكون مع الاكثار شيء غير قليل من الاقاصيص القليلة القيمة ، الى جانب ماهنالك من اقاصيص بلغت حدود الجودة والابداع . واذا كانت قصته الطويلة (ضيف من الشرق) عملا فنيا في القمة ، وهي اجود ما في مجموعاته الثلاث الاولى (الشوق واللقاء ــ وضيف من الشرق ــ والليلة الاخيرة) ، فان هناك اقاصيص اخرى لا تقل عنها جودة وابداعا ، ومنها اقصوصة (لم تطرف العين) من مجموعة (نجوم لا تحصى) ، وهي تصور عامل نسيج يكد ويعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، سعيدا بكده الذي يرجو من ورائه ان يبتني دارا له ولاسرته ، ولزوجته أخ اثرى في الغربة في اميركا ، ثم يعود مرة الى حلب ، فلا يعجبه ان تكون اخته زوجة لعامل كادح ، فيحاول ان يطلقها منه ، فيثور العامل لكرامته ، وفي غضبته يستقيم عنقه الذي اعتاد ان يميل حنانا ورقة مع اسرته ، ولا تعود عينه تطرف ، وهي التي كانت تطرف بلا انقطاع في الاحوال العادية .

غير ان اروع اقاصيص المجموعات السباعية الاربع كلها هي قصة (الاماني الحائرة) من مجموعة (نجوم لا تحصى)، انها قصة كاملة من جميع جوانبها ، جيدة بسردها ، وبحوارها ، وبأحداثها البسيطة المتماسكة القوية، منسجمة بدايتها وسياقها وخاتمتها ، وانسانية في غايتها . انها قصة خياطة شابة مات زوجها وترك لها ولدين ، وكانت من بين صديقاتها رئيسة لاحدى الجمعيات الخيرية ، وقد زارتها مرة وطلبت منها ان تصنع فستانا ليعرض في معرض الجمعية ، وقد منّتها بربح طيب . فصنعت الفستان وارسلته للعرض ، ولكنه ظل معلقا ثلاثة ايام ، وكلما مرت الخياطة من امامه رات السعر المعلق عليه يرتفع ، فتظن انه لن يجد من يشتريه ، فتستبد بها الخيبة واليأس . ثم تنكشف الحقيقة وهي ان السعر لم يرتفع الا لكثرة الطلب ، فقد حملت اليها رئيسة الجمعية قائمة طويلة بطلبات لشراء فساتين مثله ، لشدة اعجاب الزائرات به .

ان اهم ما في هذه الاقصوصة الانسانية الرائعة هو الخيالات والصور النفسية العميقة الرائعة التي تتردد في نفس الخياطة بين الامل والخيبة ، ثم في فرحتها الغامرة بوصول القائمة غير المتوقعة بعد استبداد اليأس بنفسها .

ان القارىء ليعيش كل لحظة وكل فقرة من هذه الاقصوصة التي بلغ بها فاضل السباعي ذروة الابداع في خياله القصصي ، وفي عمله الفني . وهي خير ما يعوض عن القصص الكثيرة التي لم يصل فيها الى التوفيق في مجموعاته القصصية الاربع .

بقي ان اقول ان اضعف ما في اقاصيص السباعي هو الحوار . ومرة اخرى اقول انني لا احب ان احشر نفسي في صميم العمل الفني للقصاص ، غير ان رأيي في الحوار، متى كان يدور على السنة الطبقات الشعبية ، هو ان يكون عاميا بلغتهم اليومية ، لاننا حين نضع كلاما فصيحا على السنة الباعة الصغار ، والنساء القرويات الجاهلات ، وغير هؤلاء من الفئات الشعبية الامية ، يفقد الكلام قوته وتأثيره ، فكأننا نريد لهم ان يرطنوا بلغة لا يعرفونها ولا نستطيع نحن ان نفهمها منهم . واضيف ههنا انني حينما قرات ثلاثية نجيب محفوظ ــ على روعتها ــ كنت اتضايق جدا من حوارها الفصيح ، فلا استطيع ان اهضمه الا بعد ان اعيد قراءته باللهجة المصرية العامية .

انا اعلم ان هناك من يخالفونني في هذا الراي ، وقد يكونون كثرة بين النقاد ، ولذلك اقول ان هذا هو انطباعي الخاص ، ولا اعتبر ملاحظتي هذه محاولة لفرض رأيي على المؤلف ، ولا تدخلا في عماله واسلوبه ونهجه القصصي .

وانا بعد هذا موقن من ان فاضل السباعي قاص مجيد، رسخت قدماه في حقل القصة العربية ، وان هناك خيرا كثيرا ما يزال يرتجى منه ليقف بين كتاب الطليعة من الكتاب القصصيين . وهو لا شك واصل بفضل اخلاصه لفنه ، وحسن استعداده ، وموهبته الغنية بالعطاء .

عمان

عيسى الناعوري



اليزابيت بساراس

الشاعرة اليونانية اليزابيت بساراس

بقلم نقولا يوسف

تقيم اليوم بالاسكندرية شاعرة يونانية المولد ، سكندرية النشأة .. ظهر لها حتى عام ١٩٦٠ اربع عشرة مجموعة شعرية ، منها اثنتان بالفرنسية والباقي باليونانية .. غير محاضراتها واقاصيصها ، ومقالاتها التي تنشرها من حين لآخر في الصحف والمجلات ..

وولدت هذه الشاعرة ، اليزابيت بساراس ، عام ١٩١٤ بقرية « ليونيثيون » بمقاطعة كنواريا بالبلوبونيز من بلاد اليونان قرية صغيرة جميلة تجثم على سفح جبل « بارنونوس » ، الغني بأشجار الزيتون والدلب ، وتنحدر نحو البحر ، مزدانة بأكواخها وحدائقها ، ترويها الطواحين الهوائية ــ السواقي ..

فاوحت هذه المحاسن الطبيعية لعدد من اهل تلك البيئة ، ومنهم شاعرتنا ، بالشاعرية والفنية .. فكان لها الاثر الاول الذي طبع الشاعرة على حب الجمال ، في مختلف صوره .. والذي تبلور على شواطىء الاسكندرية ونضجت ثماره ..

وكان والدها المحامي بنايوتي بساراس رجلا واسع الثقافة ، كريم الخلق ، محبا للاسفار والطواف بالاقطار ، ثم استقر بباريس فترة فتوفي ودفن هناك . وكانت امها معلمة مثقفة مارست التدريس مدة بمدارس استنبول ، ثم لحقت ايضا بربها ..

وبقيت الفتاة بعدهما تواجه الحياة وحيدة ، ولكنهما عنيا بتثقيفها وتعليمها فاتخذت من الاسكندرية وطنا ، ومن شعبها اهلا .. واشتغلت بالكتابة والتصوير ، ثم احترفت الصحافة ، ولم تزل على ذلك الى اليوم ..

وفي بيتها حصلت على كل تعليمها .. فقد كانت في طفولتها ضعيفة البنية ، فاتجهت عناية والديها الى صيانة صحتها من الاجهاد في الدرس ، واحضرا لها في البيت معلما للغة الانجليزية ، وفنانا ايطاليا يعلمها الرسم والتصوير ، وقامت امها بتلقينها اليونانية والفرنسية ..

وتعلقت الصبية بكتب الادب في شتى لغاته ، وتجلت مواهبها في الشعر .. فكانت تنظم بواكير اشعارها باليونانية والفرنسية .. كما راحت تترجم الى اليونانية نظما عن بعض الشعراء الاوروبيين والعرب .. وتنشر منظوماتها ومنثوراتها في الصحف اليونانية المحلية ، والفرنسية منها بمجلة « لاسيمين اجيبسين » المجلة الاسبوعية المصرية ، التي كانت ميدانا للشعراء والكتاب العرب والاجانب ممن يكتبون بالفرنسية .

ثم اشتغلت منذ عام ١٩٤٢ محررة رئيسية بجريدة « تشيدروموس » اليومية التي تصدر بالاسكندرية باللغة اليونانية .. وفي هذه الجريدة نشرت مقالاتها وعددا من قصائدها ، والكثير من اقاصيصها التي اربت على المئة ، والتي جمعت منها عام ١٩٤٣ مجموعة بعنوان : «الاسكندرية المكافحة » استلهمتها من احداث الحرب العالمية الثانية ، منها الفكه ومنها الحزين ..

ويلاحظ انها في جل ما تنظم وتنثر ، تعيش بمشاعرها في هذا الجو السكندري العربي الذي نشأت فيه .. فهي شديدة الارتباط ببلدتها الاسكندرية بخاصة ، وبالاقليم المصري والشرق العربي بعامة ، الى جانب بلاد اليونان التي تعدها شقيقة البلاد العربية في التاريخ والكفاح .. ولطالما طوفت بالمدن المصرية تستلهمها الشعر فزارت اسوان والاقصر والقاهرة وسيوه وسقاره ، وغيرها من البقاع .. ولم تبرح مصر منذ صباها غير مرة واحدة عام ١٩٥١ حين زارت اليونان .. فنظمت القصائد عن النيل ، وحقول القطن والقصب ، والفلاح ، ورمضان ، ومريوط .. كما نظمت عن الاسكندرية في حاضرها وامسها ثم افردت ديوانا خاصا بشعراء العرب نشرته عام ١٩٥٤ ، ترجمت فيه الى اليونانية نظما عددا من القصائد العربية القديمة والحديثة ..

وظلت بساراس منذ عام ١٩٣٥ ، وكانت في نحو العشرين من العمر ، تصدر مجموعاتها الشعرية والنثرية تباعا . وقد بلغ عددها حتى عام ١٩٦٠ ستة عشر كتابا ، طبعت جميعا بالاسكندرية . منها تسع مجموعات باليونانية ، ومجموعتان بالفرنسية ، وثلاث مترجمة عن الشعراء الاوربيين والعرب .. اما كتبها النثرية : مجموعة

من الاقاصيص ، ومحاضرة عن « المرأة في شعر تاجور » .. ولم تجمع بعد عام ١٩٦٠ ما لديها من شعر واقاصيص ومقالات وتعليقات ، ومحاضرات القتها في اندية الاسكندرية الادبية ..

ولا تتكسب الشاعرة من مؤلفاتها ، قانعة بمرتبها من الجريدة .. واعتادت ان تهدي دواوينها الى اصدقائها وصديقاتها من الادباء ، وهم كثيرون لان للشاعرة شخصية محببة اليهم .. فهي آنسة مثقفة تجيد بعض اللغات ، دائمة الابتسام ، لبقة الحديث ، تقابل من تعرف ومن لا تعرف في ادب ولطف وتواضع .. وهي الى جانب شهرتها في الادب ، معروفة في الاوساط الفنية بالمدينة بلوحاتها البديعة التي عرضتها غير مرة في معارض الصور ، والتي نشرت بعضها مصغرة في شكل « كرت بوستال » ، يتبادلها الادباء في معايداتهم .. وبينها صور بديعة رسمتها لقططها الكثيرة التي تربيها بمنزلها ، وصور اخرى من البيئة المصرية ..

وما برحت الشاعرة بساراس الى اليوم ، تواصل انتاجها الادبي في نشاط الشباب ، تنشر بين يوم واخر بجريدة « تشيدروموس » او ببعض المجلات الادبية ، مقالة او قصيدة ، او اقصوصة ..

وتجمع بين شاعرتي الاسكندرية الكبيرتين - ايتروندة باليولوغو ، واليزابيث بساراس) ، بعض اوجه الشبه .. فكلتاهما شاعرتان مثقفتان ، متقاربتان في السن .. وهما سكندريتان يونانيتان نشأتا بالاسكندرية وقضتا بها زهرة العمر .. واحبتا العرب ومصر والاسكندرية ، ونظمتا القصائد المستلهمة من البيئة المصرية ..

ونشرت بساراس باليونانية ديوانها الاول « ورد ولهب » - عام ١٩٣٥ وطبع بالاسكندرية .. متضمنا عشر قصائد للشاعرة منها : رمضان ، النيل ، شجر الارز ، اغنية حارة ، الى قطتي ، الحصان ، الخلود ، شجر مزدهر ، ثم اربع قصائد مترجمة الى اليونانية نظما عن كيتز ، ولونجفلو ، وشيلر ، ولينو ..

وقد قدم هذه الباكورة الاديب السكندري : «اثناسيوس ميخائيل» ومما قال يومذاك :

« الآنسة اليزابيث بساراس شاعرة يونانية شابة تقيم بالاسكندرية .. قرات اشعارها في مجلات ادبية مختلفة . وهي تنشر ايضا مقالات وتلقي محاضرات في الادب والتاريخ ... قرات شعرها في اهتمام . وقلت لها رايي ، وهو ان هذه الاغنيات الاربع عشرة في هذه المجموعة ، عشر منها اصيلة ، واربع مترجمة ، يضمها ديوان من اجمل الدواوين . لان في هذه الاشعار افكارا جميلة ، وعاطفة رقيقة ، وملاحظة دقيقة ، ومواهب فلسفية ، في نظم بديع ، وتعبير شعري بليغ . وقد يغيب عن بعض هذه القصائد شيء من تجارب السنين ، لصغر سن الشاعرة ، فهي في نحو العشرين من عمرها ، ولكن شعرها يبشر بمستقبل باهر ، وان كانت تستطيع ان تكون به الآن من الشهيرات ... »

وفي عام ١٩٤٠ نشرت ديوانها الثاني بعنوان : « على أجنحة النصر » - استلهمت قصائده من احداث الحرب العالمية الثانية ، وكفاح الشعوب من اجل حريتها ..

وما لبثت ان اعقبته عام ١٩٤٢ بديوان مماثل اخر ، سمته : « اذهب الى المعركة وعد منتصرا او لا تعود ! » .. وهي العبارة التي كانت الام الاسبرطية في القديم توصي بها ابنها في طريقه الى الميدان .. وتضم هذه المجموعة سبعا وعشرين قصيدة منظومة باليونانية الحديثة منها : « الليل في المعسكر » و « الربع ساعة الاخيرة لجندي » و « متى يعود السلام » و « استيقظ يا بيرون ! » .. وبين المجموعة قصيدتان مترجمتان عن الانجليزية ..

لقد اهتزت الشاعرة لمذابح تلك الحرب العالمية الثانية، التي عاصرتها ، ولاكتساح الغزاة اراضي الشعوب الآمنة ، ولدفاع الاغريق عن وطنهم الذي استباح المعتدون استقلاله .. ففاضت شاعريتها بتلك القصائد العاطفية ..

وفي خلال المعركة ايضا وقد اشتدت طائرات «المحور» في ضرب الاسكندرية بقنابلها كل ليلة ظهر لها عام ١٩٤٣ كتاب جديد بعنوان : « الاسكندرية المكافحة » صورت فيه المدينة في اثناء تلك الحرب بأسلوب تجتمع فيه الثورة مع السخرية .. ويضم مجموعة من الاقاصيص ، هي مجموعة قصصها الاولى التي لم تجمع بعد غيرها ، وقد اربت اقاصيصها جميعا على المائة ..

وفي العام نفسه ١٩٤٣ ، نشرت لها محاضرة عن «المرأة في شعر تاجور» كانت قد القتها في احدى اندية الاسكندرية الادبية ..

وتوقفت الشاعرة عن نشر المؤلفات نحو ثماني سنوات ، كانت خلالها تكتب في الصحف والمجلات . وكانت الحرب العالمية قد خبا اوارها ، واشتعلت في اثرها مشاعر الشعوب .. ومستلهمات السلام .. وعم هدوء نسبي يمكن ان تسمع فيه الاغاريد والاغاني .. وفي عام ١٩٥١ عادت مطابع الاسكندرية تصدر للشاعرة شتى الدواوين تباعا .. فظهرت في ذلك العام ثلاث مجموعات . الاولى « طيور البحر » وتشمل عددا من القصائد الوجدانية باليونانية في مسائل شتى .. وتضم الثانية بعض قصائد لاوسكار وايلد مترجمة نظما الى اليونانيةومنها «خارميدس» و « بانثيا » و « الشرك » و « قصة الليل والشاعر » ... واما الثالثة فديوان نظمت قصائده بالفرنسية وسمته « ورود متناثرة » واهدته الى « ظل الشاعر جان مورياس البلبل اليوناني الذي انشد بلغة هوجو ولامرتين .. »

ويجتمع في هذا الديوان الفرنسي « ورود متناثرة » الذي ظهر عام ١٩٥١ ، عدد من القصائد الجديدة التي نظمتها الشاعرة بالفرنسية ، وعدد اخر مما كانت قد نظمته باليونانية ونقلته نظما الى الفرنسية .. وقسمته الى بابين:

قصائد وجدانية ، وقصائد من وحي الحرب العالمية جعلت لها عنوان « اناشيد ومراث » ومن الوجدانيات نقرأ لها عن : « الطفل » و « لما كنت (طفلة) » و « الحب الضائع » و « القفص الخالي » و « وردة يناير » و « أغنية أخيرة » و « احلم بحب » و « الى الشاعر بالاماس » (وكانت الشاعرة قد القت هذه القصيدة في حفل تكريم الشاعر بالاماس الذي اقامته الجمعية الادبية للسيدات اليونانيات بالاسكندرية لمناسبة مرور خمسين عاما على نشاطه الادبي، ثم توفي عام ١٩٤٣ ببلاد اليونان في خلال الحرب) ...

ومن قصائدها المستوحاة من الحرب « فدائيون » و « على خط النار » و « عودة اللاجئين » و « البعث » و « اجراس عيد الميلاد » و « حداد وفخر » و « ٢٨ اكتوبر » و « رسالة الى محبوب » و « خريف الحرية بأثينا » ...

وفي عام ١٩٥٣ ظهر ديوانها : « الفراشات » وبه ثمانون قصيدة باليونانية .. منها قصائدها عن « الاسكندرية » و «مريوط» و «فيضان النيل» و «أكتوبر بالاسكندرية» .. وقد قدمته بثماني قصائد عن مصر بعنوان «أزاهير النيل» ..

وكانت سنة ١٩٥٤ اخصب سني الشاعرة في طبع الدواوين الشعرية . فقد صدر لها في ذلك العام خمس مجموعات سمتها « الجنادب » و « رعود الحرب » و « البلابل الغريبة » و « المزامير الغريبة » و « باقة صغيرة » .. وكلها باليونانية ما عدا الاخير فهو بالفرنسية .

وتطالعك بديوان «الجنادب» قصائد رقيقة عن «الاهرام» و « رياح الخماسين » و « ازهار الصحراء » و « خريف ذهبي » و « أغنيات » و « ازهار وثمار » ...

وبين المئة قصيدة التي جمعتها الشاعرة في « رعود الحرب » وكانت قد نظمتها فيما بين ١٩٣٩-١٩٤٥ نجد قصائد اخرى استلهمتها احداث الحرب العالمية الثانية . ومنها « الى الجيش » و « العمال المحاربون » و «قبرص» و « ايرا » وعن العلمين وميادين القتال و « (اوشى) كلا » وهي الكلمة التي ارسلها متكساس الى موسوليني ، بمعنى: لا نسمح لكم بغزو بلادنا ..

واما المجموعات الثلاث الاخرى التي اصدرتها الشاعرة عام ١٩٥٤ فتشمل عددا مختارا من قصائد الشعراء المختلفي الاجناس واللغات ترجمتها نظما ونسقتها كما يلي :

كتاب « المزامير الغريبة » وقد اختص بشعراء العرب القدماء والمحدثين ، وتضمن ثلاث محاضرات القتها الشاعرة في اندية الاسكندرية الادبية ، وتتخللها نماذج من الشعر العربي ترجمته الى اليونانية نظما .

والمحاضرة الاولى عن « الاغاني المصرية الشعبية » القتها بمكتبة الاسكندرية عام ١٩٣٤ وترجمت معها نماذج من تلك الاغاني والمواويل ومن الشعر المصري الحديث .. وبينها قصائد عن « النيل » و « الشادوف » و «الساقية» و « الجلباب » ..

والمحاضرة الثانية عن « الشعر المصري القديم » القتها بنادي اسكيلوس بالاسكندرية عام ١٩٣٥ وبها بعض اناشيد اختاتون .

والمحاضرة الثالثة عن « الشعر العربي القديم » القتها في ذلك النادي ايضا عام ١٩٣٧ . وبها مختارات من شعر المتنبي ، وابن الرومي ، وابن زيدون ، وعنترة ، وامرىء القيس ، والخنساء ، ومجنون ليلى ، وابن المعتز ، وعمرو بن كلثوم ... وهم في نحو عشرين شاعرا عربيا .

كما تضمنت هذه المجموعة مختارات من شعر شوقي في مجنون ليلى ، ومن خليل مطران ، واحمد راسم ، ونشيد الحرية الذي لحنه مدحت عاصم ..

وكانت قد القت بجماعة « الاتيليبه » بالاسكندرية مترجمات عن شعر خليل مطران ..

وذكرت الشاعرة في مقدمة كتابها هذا « انني لا الم بالعربية الفصحى ولا بالمصرية القديمة ، ورحلتي في هذه الدنيا العجيبة بين الشعر المصري القديم ، والشعر العربي القديم والحديث ، دعتني الى الترجمة من العربية بعد ان ترجم لي بعض اصدقائي المصريين ، الشعر العربي الى نثر فرنسي . فنظمته باللغة اليونانية محتفظة بالمعنى . فهو لذلك ترجمة عن الترجمة .. واما اشعار احمد راسم فقد ترجمتها من فرنسيتها الاصيلة راسا » .

وتضم مجموعة : « البلابل الغريبة » عددا من القصائد المترجمة نظما الى اليونانية عن ثلاثين شاعرا وست شاعرات من الانجليز والفرنسيين والالمان والايطاليين . ومنهم ملتون وكيتز ، وبيرون ، وتنيسون ، وتريزا هولى (من الانجليز)، وبودلير ، وجان رابو ، وجان موريا ، وبرودوم (من الفرنسيين) .. وجوته ، وشيلر ، وهايني ، واهاند (من الالمان) وكاردوتشي (من الايطاليين) ..

واما المجموعة المترجمة الثالثة ـ « باقة صغيرة » ، فقد نظمت بالفرنسية . وبها اكثر من ثلاثين قصيدة مترجمة عن قصائد مختارة لعشرين شاعرا يونانيا من المحدثين . ومنهم : بالاماس ، وجان بوليميس ، وسيكيليانوس ، وبريفيلاكيس ، وجورج دروسينيس ... وغيرهم وختمتها الشاعرة بقصيدة فرنسية من نظمها ..

وفي عام ١٩٥٧ نشرت « بساراس » ديوانا منظوما باليونانية ، سمته « ليال معطرة » مشتملا على اكثر من ثلاثين قصيدة منها عشر مترجمة عن شعراء اخرين .. ومن قصائدها هنا « الشتاء في الاسكندرية » و « شهداء الحرب » و « الشعراء » و « أمسيات الخريف » و « حلم الحب » ...

ونشرت عام ١٩٦٠ مجموعة باسم « البحار » . وبها ٣٥ قصيدة باليونانية منها «مريوط» و «منارة الاسكندرية» و « بنات الاسكندرية » و « قصب السكر » و « العلمين » و « الصور والزمن » و « احبك » و «سطح فقير» ...

وكتب احد ادباء الاسكندرية اليونانيين عن ديوانها

« البحار » يقول :

« نظمت الشاعرة اكثر قصائد هذه المجموعة « البحار » خلال مشاغلها بالجريدة ووسط جو الصحافة . ومع ذلك فقد كتبت الابيات لتقرأ في سهولة ، وتدخل الى القلب . واحيانا تكتب كالشعراء الاقدمين الذين طالما اسبغوا علينا عواطفهم . وقد تكتب عن صفائح فقيرة يزرع فيها الياسمين والفل والريحان .. وتكتب فلسفة البسطاء في بساطة تعم كل المجموعة دون ان تقلد بعض المحدثين الباحثين عن اشياء متعبة رغبة في التأثير .. بل هي تنتقي الاشياء البسيطة النابعة من قلبها البسيط .. ولها مدرستها القلبية الخاصة بها .. وها هي تغني للحب :

« انت تحب ، والبلبل عرف انك تحب ..

وكل الحي يتهامس ..

انت تحب ، والورد أزهر في عز الشتاء .. »

« وبساراس شاعرة ولا شك ، حافظة لمركزها في قلب الادب المكتوب باليونانية ، وقد نجد من يقول انها بين الشاعرات لا تعاني القلق . وهي لا تكتب كي تبدو فنانة ، بل لتجعل قلبها يتكلم ، بينا تسيل الابيات في سلاسة وعذوبة .

وديوانها « البحور » فاكهة ناضجة لانتاج شعري .. انظر الى قولها في « العلمين » :

« رذاذ من المطر يسقط فوق العلمين ..

ويسقي قبور الابطال الراقدين هناك ..

وقلوبنا هناك تسجد ..

وفوق الصلبان التي لا آخر لها

تجتمع دموع السماء مع دموع عيوننا !! »

وتنشد بساراس الى « الاسكندرية » :

« البحر الابيض ، اللازوردي ، يقبلك ..

والنيل العظيم في رقة يعانقك ..

والتاريخ يشع مجدك ..

وطفلة أفريقا تدعين ..

ووليدة يونان تسمين ..

مليكة عظيمة ذات تاجين ..

وطفلة جميلة ذات امّين ..

امامك تسجد العصور ..

وعند كل غروب شمس

تركت صورة متأججة

في سمائك الذهبية المتوهجة ! ..

أخواتك القدامى يحسدنك ..

لكم ودت طيبة وممفيس، ان تطلا مثلك على البحر الفسيح .

وان تدللهما رخي النسمات

الوافدة من شواطىء يونان الذهبية ..

اسمك الاغريقي المجيد ..

يشير الى اغريقيتك ..

ولكن الخماسين يسطع على محياك ..

ويضفي عليك جمالا لوحته الشمس ..

فأمك الثانية افريقية !

وعندما يهب نسيم المساء ،

هاتفا بمجد البطالة ،

نعود الى القديم ..

حيث يتلألأ النجم الفريد

وجه كليوبتره الحلو القسيم .

هذه الارض التي تنبت النخيل ..

والموز ، واللوتس ، والصبير ..

وفي جوفها تعيش مختبئة

آلهة الاغريق المرمرية القديمة ..

تعرف طريقها الى البعث وتريد النشور ..

يا بنت ايزيس والاسكندر :

طفلة الاهة ، ونصف اله ،

على كتفك يزهو الارجوان المضاعف .

والعظيم المجيد يتقدم

في طريق التاريخ العريض .

وتقول « بساراس » في قصيدتها عن « النيل » :

كل ما عداك من أنهار الدنيا حين تفيض

تنشر حولها التلف والدمار

ولكن مياهك حيثما تتدفق :

تهب الثراء والقوة للارض ..

والحياة والغذاء للاهلين ..

ولدت في اعماق الجبال

ومن بحيرة نائية في قلب افريقيه ..

تسير قدما مباركا ..

دون مقاومة ، ولا عاصفة مزمجرة

في ارض تشملها محبة الله ..

وقور كأب ورئيس ..

بالحب ينعش بلاده في رقة وحنان ..

وابتسامة النهار الذهبية ..

والنخلة التي تهزها الريح ..

تنعكسان في الماء الرقراق ..

مياهه الشاسعة تنتشر

كبحر مترام جليل ..

والارض تحس عناقه ..

والسماء من فوق تنعكس على مياهه ..

وكل شيء زرقة وذهب ..

والنخلات السامقة الفخور ..

تتمايل وتتهامس في خفاء .

متوجة بنوار الثمر الناري المتوهج ..

عندما يضرم الغروب الارجواني الملتهب ..

فيه نارا ذهبية ..

آه ! انهلي ايتها الارض السعيدة !

فهذه المياه المباركة الندية الحنون :
لا تلبث ان تحمل اليك الثمار والازهار ..
فتتيهين بأثوابك الخضراء ..
تهدهدك أشعة الشمس الدافئة ..
وتنشد في قصيدة « النخيل »
مفاتن الخريف موفورة ..
وبارع جماله وثراؤه ..
واجل الجمال ، وأبهى الفخار
ينضح ويفيض ويزدهر ،
في النخيل المزدان بالذهب !
نار ، وشهد ، وابريز ..
وكهرمان ، وياقوت معا ..
وكأنما امتلأ بالدم القاني الحار ..
انه الشعر الذي ينظمه الخلاق ..
والطبيعة كلها تعيش فيه ..
شامخة فارعة ، تهز الهواء ..
كنوزها من فاكهة مرجانية ..
والسنون تزيدها عظما وطولا ..
لتصبح دواما من الشمس قابا ..
وورقها الخفيف يتأرجح مرحا ..
لكم تبدو الدنيا صغيرة تحتها ..
وكم تمتد السهول والحقول بعيدا ..
وغروب الشمس تراه متأججا مضيئا
ومياه النهر العذبة الزرقاء تفيض بطيئا ..
في فاكهة حلوة لا عد لها ..
وفي ضوء المساء الارجواني ..
تنشر رواءها غير المحدود ..
ومثل تيجان عمود مذهبة ..
ترفع قبة السماء الصافية الزرقة في وقار ..
جذوعها اعمدة ضخمة ..
لمعبد الطبيعة القديم ، المنقطع النظير ..
تمر الاجيال ولا تقوضها ..
صامدة لا تبالي الاعاصير ..
ولا البروق ولا نار الصاعقة ..
ففي جوف شجرة النخيل
تكمن قوة مطمئنة طاهرة سماوية ..
تصاول الاحداث من حولها
رصينة .. هادئة ..
صاعدة باحثة عن الاتحاد بالشمس .

ومن قصائدها التي نظمتها بالفرنسية هذه القصيدة التي القتها في مهرجان نظمته « الجمعية الادبية لسيدات الاسكندرية اليونانيات » تكريما للشاعر قسطنطين بالاماس لمرور خمسين عاما على نشاطه الادبي . وقد توفي الشاعر عام ١٩٤٣ في اثناء غزوة الالمان لبلاد اليونان ، وكان يومذاك شيخا مريضا .. وهي احدى قصائد ديوانها « ورود متناثرة » المطبوع عام ١٩٥١ .

عظيم انت ايها الشاعر !
بشفتيك المتقدتين تخاطبنا الروح الاغريقية الملهمة ..
وعلى هذه الارض تنشد يا رسول الآلهة ..
كي تعزي .. وتجمل .. وترفع ..
ولأنت تجمع كل شيء :
آلام الناس ، ومتاعبهم ، وحماستهم ..
وكل دمعة تتفجر كاللؤلؤة ..
وصخب الحروب .. والحب الساحر ..
كل ذلك تجمعه في قيثارتك ..
التي تلهبها النار ، ويشدها انسجام النشيد ..
هكذا يرتفع غناؤك صلاة اكان ام تمجيدا ..
صاعدا الى عنان السماء في رجفة كرعشة الاجنحة ...
حاملا خفقات قلوبنا واماانينا واحلامنا المتقدة ..
ليضعها تحت اقدام الاله السرمدي ..
ثم يمضي خافقا بجناحيه الذهبيين ..
عائدا الى ارضنا ، حاملا الينا تلك الهدية السماوية ..
بلسم الفكر وروعة الانسجام ، العظيم الجميل ..
الذي يرد الصفاء الى قلبنا الدامي !
في هيكل الآلام تستوي على قدميك ..
يأيها الكاهن الاعظم !
حاملا قيثارتك في يدك ..
وسالخا روحنا عن الارض ..
وباعثا هذه الروح بعيدا عن الدمامات والمتاعب ..
ومطلقا اياها في قوة واباء ..
ما اكثر ما انشدت مدى خمسين عاما !..
فتغنيت بالطبيعة ، والوطن ، والحب ، والجمال ..
وبالالم ، والموت ، والمجد ...
وبالفكر الخالص ، وعذاب الصليب ..
والمسامير المخضبة بالدماء ..
لقد احسست بكل هذا ..
وكل هذا مثلته في شعرك ..
واحسسنا به نحن حيا رنانا ..
ملؤه الفرح والجمال منبعثا منك وفائضا من ارواحنا المختلجة
لشد ما انشدت في غضون تلك السنوات الخمسين ...
ان شفتيك الناريتين تجعلان صلاتك المتعددة الاصوات .
تدوي في رحب السماء ...
وتندفع نحو آلهة ارواحنا المعذبة ..
لطالما انشدت في خلال تلك الخمسين سنة ..
ومن شفتيك الناريتين تفيض انشودة سماوية ..
اشبه بينبوع لا يجف ..
مرسلة الينا من الآلهة كي تعزينا عن آلامنا .

الاسكندرية — نقولا يوسف

في ذكرى الشاعر فوزي المعلوف

بقلم وديع ديب

* * *

قال لي صديقي وكان من رفاق الشاعر وليدا وطالبا ومغتربا ، كم كنت اتمنى لو تيسر لك ان تعرف من فوزي شخصيته الساحرة . اما الشعر فلست ادرى منك به .

قلت وهل يختلف عن اخويه الشاعرين شفيق ورياض في شيء؟ فاجاب محدثي الكريم الاستاذ جان الوف : ليس في شيء ؟ فاجاب محدثي الكريم الاستاذ جان الوفه ليس في مغزى قوله ان الشعراء يختلفون شكلا واتساقا ويختلف الناس فيهم تقديرا ومذاقا . فقلت لكأني اتمثله في خاطري فتى فارع القامة على اعتدال ورشاقة دمث الاخلاق ، هادىء الطبع ، وسيم المحيا ، ترف على فمه ابتسامة حزينة . قال انه لكذلك ، وازيدك علما في انه كان شديد التعلق بزملائه الشعراء بحيث كان لا يرى متوحدا في سامر او منفردا في مسير . وكان احب شيء الى قلبه ان يرى في موكب من اصحابه ، وفي حاشية من اخوانه . ومن رفاقه المخلصين الشاعر القروي والياس فرحات وعقل الجر وشكر الله الجر . واضاف قائلا لقد اسعدني الحظ في ان اكون في يوم من الايام رئيسا للمنتدى الزحلي في سانبولو وكان ان دعينا الشاعر عقل الجر الى امسية شعرية فلبى الدعوة راضيا شاكرا وما ان اعتلى المنبر واصغى اليه الناس حتى التفت الى صورة المرحوم فوزي المعلوف وانشد قائلا :

هنا حرم الآداب يا نفس فاخشعي   وصلي على رهط البيان وسلمي
كأني متى شارفت فتيان زحلة   اشارف حماة الارز من كل ضيغم
امت اليهم بالقديم من الولا ...   فيا روح فوزي اين انت ؟ تكلمي

بالطبع ليس من الممكن في حدود هذه الكلمة العجلى ان اشير الى طرائف الشاعر الفنية وان اتحدث عن بدائعه وروائعه . غير انني احس كلما قرات له مقطوعة من الشعر بأن الاوتار التي شدها الله الى صدره لا تصلح الا للنغم الحزين والهمسة الجارحة . فهو من الشعراء اشبه شيء بالناي من الات الطرب . بهذه الشبابة التي يتخذها العازفون في جبالنا ، من القصب النابت على مجاري المياه العذبة . المنسوج من خيوط الضياء ، وهينمات النسيم ووسوسات الجداول الحالمة . من اجل هذا ينساب النغم من نوافذ الناي حنينا يعبق بالذكريات الجميلة ، والاماني الحسان . وهكذا تطل عليك روح الشاعر من نوافذ الكلم وشرفات الحروف نغما حنونا دافئا حبيبا الى القلب اثيرا في النفس . وهل باستطاعة الكنار ان يصدح بغير الحنين وهل يكون الشاعر ساحرا بغير ان تسيل روحه على اوتار بيانه :

فوق حضن الربيع في مثل هذا اليوم   بعد العشرين من نواره
خلعت وردة على الارض عنها كمها   والدجى صريع احتضاره
فاذا بالدموع في بردتيها   يمسح الصبح ماءها بازاره
لم تكن وردة ولكن وليدا   نسي الفجر نجمة في عذاره
ورمى الحب نبلة في حناياه   فكانت للشعر بدء شراره
ذرفت عينه لدى رؤية النور دموعا   جرت بغير اختياره
نطقت عنه وهو عي فكانت   اول المفصحات عن افكاره
هكذا الزهر يسكب الدمع عند الفجر   مستقبلا سنى نواره

فهل استمعت يا اخي ، الى هذه القوافي المتأوهة في حنين ، الصادحة في شوق ؟ ذلك هو الشاعر الذي امتطى بساط الريح ، الى النجوم البعيدة ، ليجمع من خمائلها باقة يقدمها لالهة الوادي ، الذي احتضن رفاته وكان له منبرا ومصلى .

وديع ديب

في ذكرى عيسى اسكندر المعلوف

بقلم البدوي الملثم

* * *

انبلج فجر الثاني من تموز عام ١٩٥٦ عن مصاب دام اطاح بالمؤرخ الموسوعي المرحوم عيسى اسكندر المعلوف ، فخسر التاريخ به عملاقا عز نظيره ، وخسرت به المعرفة شيخا رفيع المكانة والعروبة علما سارت في يوم مصابه صفا واحدا شارقة بالدمع ، وافاضت الصحافة والاذاعات في يوم فجيعتنا به في تعداد صفاته ، وتعالت صعقات اخوانه وشهقات طلابه وهم يودعونه الوداع الاخير !

وفي يوم مصابنا بهذا العالم الموسوعي سخرت البرق في نقل مشاعر المي وحزني ولذت بالصمت مرددا قول داود النبي « صمت لا افتح فمي لانك هكذا فعلت ! » ولبثت سادرا في حزني ، صامتا في فجيعتي ، مرددا قول الشاعر :

ما دام غير الله من دائم   فاغضب على الاقدار او سلم !

واليوم اذ يحتفل اخوان الفقيد وعارفو فضله بذكراه السابعة يذرفون دموعهم سخية سخينة على امام من ائمة العلم ، وحكيم من حكماء المعرفة ، وجبار فقدت فيه « الضاد » شامخا من شوامخها ، وخسر فيه التاريخ سادنا من سدنته ، والصحافة علما من اعلامها والتربية والتعليم فارسا مجليا من فرسانهما ، وما اصدق الكاتب الموهوب الاستاذ عجاج نويهض وما انصفه في قوله : (١)

---

(١) من المقدمة التي كتبها الاستاذ عجاج نويهض لكتابي « عيسى اسكندر المعلوف : المؤرخ الموسوعي الاديب » .



فوزي المعلوف

•

« والعلامة المعلوف هو من علماء الامة العربية في هذا العصر ، على طراز العلماء الاولين السابقين ، الذين من ثمرات عقولهم نسجت الحضارة العربية العلمية خيوطها الذهبية عصراً فعصرا ، فكان مجد العرب الخالد !

هو اليوم من مقدمي مشيخة العلم العربي « الانسكلوبيذيين » ولا جدال ، هو حلقة من سلسلة فريدة نادرة ، اصبح رجالها افرادا وآحادا ، غير ان الفرد من هؤلاء ليكوّن « عالما صغيرا » بنفسه او « دويلة » او « موسوعة علوم » تامة الاجزاء ، من الالف الى الياء !

يتحدر العلامة من اسرة عربية محضة العروبة ، غسانية الارومة ، منشأوها الاول حوران والشام وبردى ، ثم اخذت عروق منها واصول في النزوح والنزول والاستيطان في لبنان حتى هبط نفر عزيز منها زحلة والبردوني ، ولا يزال آل المعلوف « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ! » .

ولماذا لا استقرض بعض تعابير واصطلاحات دارجة في هذا العصر الحديث ، لاصف « المعلوف » بقية السلف المأموني القديم ! فهو يحمل في هذا العصر ، عصر «الفيزا» و «جواز السفر» أجوزة « ثلاثة » لكل واحد منها خصائصه وميزاته :

فالجواز الاول : تقرأ فيه ان العلامة المعلوف هو صاحب المكانة العلمية التي جعل خلال خمسة عقود مطردة يجتاز بها بلاد الله ، قطرا بعد قطر ، واقليما بعد اقليم ، حتى صار افقه الذي يسبح فيه لا افق زحلة ولبنان وسورية ، بل افق العالم العربي الفسيح ، يضاف اليه عالم «المهجر» الذي لم يكن يذكر عصر المأمون، فسقطتالحجة «الاقليمية» وانهارت في نهر البردوني ــ على مائه العذب السلسبيل النمير ــ الدعوى « القطرية » من ان المعلوف هو لزحلة وما جاورها ولجيرتها الاقربين ، ولو امتد هذا من « طورس الى رفح » وما هو الا للعرب كافة ، في القاصية والدانية، وما هو الا « للضاد » في مختلف الرقعة والبلاد !

والجواز الثاني : ينبئك ان المعلوف ، على وداعته العلمية التي فطر عليها وحبه الخير المحض للناس ، قد رماهم بمعضلة كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها ؟ وما هذا الجواز الثاني « في جيبه » الا اشارة الى ان هذه لمعضلة مستعصية ، عسيرة الحل ، ومن استطاع ان يحلها فليتقدم ، ذلك ان المعلوف في عديد العلوم التي تناولها وحذقها ، وقلبها ونخلها ، وارتشفها وامتصها ، أمسى ــ باصطلاح الطبيعيات ــ كالجسم المنشور ، له جهات بلورية متعددة ، متساوية القياس ، فقل لي ، والحالة هذه ، بأيها تبتدىء ؟ وبأيها تنتهي يا ترى ؟

نعم هو يتشح بثوب المؤرخ الثقة فوق جميع اوشحته العلمية ، ولكنه مع هذا : هو في العربية ابن بجدتها يشار اليه بالبنان !

وهو في الكتابة والتأليف لا يشكو قلمه عطشا ، ولا قرطاسه جفافا ، حتى اذا جئت تعدد كتبه واسفاره ورسائله ، المطبوع من كل هذا والذي لم يبرح مخطوطا ، ومحاضراته وخطبه وديوانه الشعري ، اخذك منه العجب، كما حصل للمتقدمين ، وهو انك لا تكاد تؤمن وتصدق ان العمر مهما طال وشغل بالعمل دأبا واطرادا يتسع لمثل هذا الانتاج الضخم ، الذي يسميه علماء الاقتصاد بـ «الانتاج الكبير » واي انتاج ضخم كبير هذا ــ اعجوبة فحول العلماء لا تزال تتكرر !

وهو صحافي قديم ، ومجلدات « الاثار » ماثلة في المكتبات حية ناطقة ، وهو في الشعر من مالكي زمامه ، وكفاه اعتزازا وفخرا انه منجب فلذة كبده « فوزي » الذي جابت شهرته الشعرية البلاد ، وبذبوله قبل الاوان، خسرت دولة الشعر العربي العصري الرقيق ملهما ،ارتفع به الابداع الى مستوى الطبقة العالية بسنوات ، فلو امتد به الاجل ، لاتى بالعجب فوق ما ترك وخلّف !

فما اشبه « المعلوف » ، وهذه معضلته ، بمعدن يستخرج منه الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، وكلما

حطاية من لندن

الى «ثورا كرستين» القادمة من ايسلنده ...

اللقاء الاول

أيها القادم من قلب الجليد
أوَ تدري ؟
انني احببتُ في عينيك غابات النخيل
انني عانقت في عينيك نجمين اضاءا
خلفا الفجر وضاعا
كل نجم منهما عين شقيقي
يا رفيقي

ساحت الكف على الخد الاثير
وبشعرٍ من حرير
وثوت في العنق البض طويلا
ثم تمتمتِ ببطء وبهمس
أيها القادم من شرق بعيد
انني احببتُ بغدادك من اعماق قلبي

ثم ماذا ؟ ؟
وانتهى الليل باطباقة ثغر !

اللقاء الاخير

قلتُ للحلوة : هل تمضين حقا ؟
نحن ما زلنا بشوق وبتوق
للعيون الخضر للوجه الجميل
للقاء كل ما فيه نبيل
نحن من يوم التقينا
فلماذا تبحرين ؟

بسمت في شبه سكره
ثم قالت : لا تفكر يا صديقي
انا لا اختط شيئا في حياتي
لبعيد هو آت
انا احيا دون هم او حساب
هكذا الدنيا قصيره ...

قلت للحلوة والساعة تجري
غنِّ لي لحنا شماليًّا حبيبا
همسته جزر تنثال طيبا
غن لي يا حلوتي ان الحياة
مثلما قلتِ ، قصيره
ولقائي بكِ في الدنيا كحلم
غن لي يا حلوتي ...
واندفعت نشوى تغني
بلسان آيسلندي عجيب
كان صوتا بعضه عطر معتق
وبقاياه كهمسات المحيط
كل حرف فيه حلو ومموسق
جنحه عطر وجنح من حرير

آن للحلوة ان تمضي فقلت :
أتحبين وداعا عربيا ؟
ثم اطبقتُ على الخدين ثغري
ملئا بالعطر عمري
كل عمري

ثم ماذا ؟
صفر الحارس للقطر فضاعت في القطار
من رأى نجما توارى في النهار
في النهار ...

لندن — هلال ناجي

زاد عمقه انكشف عن طبقات معدنية جديدة ، غالية القيمة.

وان طال الانتظار قليلا، فلست ناسيا « الجواز الثالث»! غير انه يوجز بعبارة ، وهو « بلغة القناصل » صالح لسفرات متعددة مدى العمر الى « دولة المطابع » ولكن كتب المعلوف المخطوطة ، العديدة المعدة للطبع ، والتي من عيونها «الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية » الكبير الواسع ، واعظم به من تاريخ ، لا تزال « حواجز الحدود » تعوقها عن ولوج دور الطباعة ! » .

هذه عصارة قلم ، يمليها القلب على القلم ، في الذكرى السابعة للعالم المرحوم عيسى اسكندر المعلوف ، الذي كلما ذكرناه ذكرنا مناجيبه الموهوبين « فوزي » و «شفيق» و « رياض » وكلما قرأناه قرأنا شوامخ قلمه السخي وسور جهاده ، وانحنينا اجلالا لعملاق من عمالقة التاريخ وفارس من فرسانه المجلين !

عمان — البدوي الملثم

كان الشارع الطويل يكاد يكون خاليا من الناس. وبين لحظة واخرى تهب ريح من ناحية الجبل . فتثير دوامات صغيرة من التراب والغبار والقش . تصطدم بجدران المنازل واعمدة النور الفضية اللون وسيقان المارة القلائل . كان الهواء جافا مليئا بذرات دقيقة من الرمال . بينما اكتست السماء بلون اصفر قاتم .. وفي الشارع تنبثق من الارض على ابعاد متساوية اشجار . قد تساقطت اوراقها وتعرت فروعها ... انه الان بعيد عن مخزن الترام . ويقترب من مستشفى حميات العباسية .. التي يقوم على بعد منها مستشفى المجانين ... بعد قليل ، مسافة ليست طويلة ، اصل الى هناك، رائحة التراب الجاف حادة انها تملأ انفي لها وخز، نفس الرائحة .. التي كانت ...

.. في تلك الليلة ....

.. رقدت فوق السرير ، حملقت عيناي في السقف ، الظلام يخيم فوق المدينة ، الليل خامد الانفاس ، كثيف طويل، في اذني ازيز خافت لا ينقطع، لم أدر مصدره .... كانت هناك اصوات الليل الغامضة ، عواء كلب من بعيد ، بكاء طفل ، صوت أم يعلو .. سكون .... صمت ... دقت الساعة جاءت امي . وجهها شاحب، مليء بالحيرة ..

ــ أبوك ..

ــ ماذا به .. ؟؟

ــ انه على غير عادته ..

ــ كما حدث في الاسبوع الماضي!!

ــ بل العن من ذلك ..

ــ العن من ذلك .. ؟ ؟

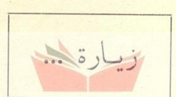
ــ شعرت بقلق وتسربت الى اذني أصوات غامضة مرتعشة . لم اعرف ما هي في بادىء الامر وعندما استطعت أن ارى جيدا في الظلام وجدته يجلس في السرير .. ببدلته الصفراء التي رفض ان يخلعها عندما جاء من العمل .. كان يرفع وجهه الى السقف ويحملق بعينين جاحظتين .. ثم يعد على اصابعه .. ويقول .. خمسة عشر .. اربعة عشر .. ثلاثة عشر .. لم يبق في الشهر الكثير . ديون ستسدد .. اول الشهر .. أول الشهر ..

ــ ديونه .. ؟؟ أي ديون يا أمي؟؟

ــ انه يفعل كما كان يفعل ايام بطالتك .. أتذكر .. ؟ !

ــ نعم اذكر .. انه كان يقضي الليل ويحسب ديونه المتراكمة عليه.. ففي هذا الوقت كنت بلا عمل .. ومرتبه ضئيل .. يسند رأسه الى يديه . ويبكي بكاء خافتا .. ثم يهمس ضاعت .. ضاعت ..

ــ هل اذهب الى حجرته .. ؟؟



بقلم جمال أحمد الغيطاني

ــ تعال يا ولدي .. فانا لم اجىء الا لهذا ..

ازدادت رائحة التراب الجاف في انفي ، لم افكر في مصدرها ، من الركن المظلم ، خربشة فار ، كان بلا شك ، فار .. دخلت الحجرة ــ صفعني الظلام ــ توقفت انظر ناحية السرير .

ــ ابي .. لماذا تسهر حتى الان ؟؟

ــ : هيه .. نعم .. آه ..

ــ : ابي .. اقول لماذا تسهر حتى الان .. ؟ ؟

ــ : ديون .. احسب ديوني يا بني .. ثلاثة اربعة .. خمسة .. عبد المنعم البقال .. علي الجزار ..



ــ .. لكن لم يعد هناك ديون تحسبها .. فما الذي تحسبه ؟؟

ــ صرخ ، قفز ، لوح بيده ..

ــ : ابتعد عني .. سأغلط في الحساب .. ألا يكفي انك عاطل اخذت الشهادة . ولم تعمل .. فماذا تريد .. ؟؟

ــ : ابي .. ؟ ؟

ــ : اذهب بعيداً عني .. قلت لك اذهب .. سأغلط في الحساب .. الـ .. الـ .. الجزار .. البقال .. صاحبة البيت ..

ــ : لم يعد هناك ديون يا ابي ولم أعد متعطلا ..

ــ .. اذهب من وجهي .. انك مقامر ضدي .. تريدهم ان يقتلوني .. الجزار .. البقال .. صاحبة البيت .. آل .. الـ ..

صوته يذيب سكون الليل ، منازل حارتنا متلاصقة اقل صوت يجعل النوافذ تفتح والانوار تضاء والرؤوس تطل ثم تسأل ..

ــ : ماذا هناك .. ؟؟

ــ : من يتشاجر .. ؟؟

ــ : من .. ؟؟

ــ : انه .....

تستمر التعليقات، ثم يعود الصمت، تراجعت الى الخلف ، سمعت صوت بكاء امي جسمها البدين يهتز ..

ــ : يا خسارتك ..

ــ : لا تبكي يا أمي ..

ــ : لماذا لا ابكي يا ولدي ؟؟ .. هل هذه نهاية لابيك .. ؟؟

.. مسكين .. مسكين .. زمان ... !!

كنت اشرف على نهاية دراستي ، بقي لي شهور ، احصل بعدها على شهادة متوسطة ، فجأة ... جاءتنا اختي من الصعيد ، طلقت ، اولادها ، زادت نفقاتنا ، مرتب ابي ضئيل لم يحتمل ، من قبل كانت عليه ديون كثيرة ، مرت شهور عسيرة ، جافة ، بين شهر واخر يرحل الى القرية البعيدة ..

.. هناك في احضان الصعيد ..

حفنة رمال

شعرت بنفسي تموت
على حفنة من رمال ظماء
تقلقل فيها سعير الدماء
وما اطفات غلة لاهبه
بنجع القتيل ودمع الحزين
وظلت خيالاتها الراعبه
تحدق في انفس الاخرين
وتنسج عبر دروب الضياع
خيوط الرجاء
شباكا تكبّل ايامنا
فننسى بكانا واحزاننا
ونمضي اليها
عصافير نهبط جوعى عليها
لتعصر اضلاعنا في سكوت
ونصلب فوق ثراها المقيت
كما تصلب العنكبوت

فيا حفنة الرمل رفقا بنا
أتيناك نجهل ما تفعلين
سفحتِ دم القلب في دمعنا
وما زلت من نهم تشربين
فيا لك من خادع ، بالمنى
يضيء يد الموت للسائرين

عرفناك .. لكن في بابنا
تدور رحى الليل بالعائدين
سنمضي ولا مأمل بالرجوع
حيارى نساق باقدارنا
ونحسب ان الصراع الرهيب
على بابك الابدي المنيع
هزيع ، ولكن نسينا اللهيب
يشب فيهوي باعمارنا
ضللنا فما انت غير الازل
تدورين بالبشر المتعبين
تلوحين زاهية بالحلل
تمدين جسر الفناء
لنعبره خفقة من امل
مواكب ، كالنمل ، دون انتهاء

حسين علي صعب
بنت جبيل ــ لبنان

باع ما بقي له من الارض الضئيلة .. ثم عاد ذات مرة قال .. لم تعد هناك ارض .. لتباع .. بدا يبدو شاردا ذاهلا طول النهار .. يعود من عمله ويمسك ورقة وقلما تتمتم شفتاه بأرقام كثيرة .. هي قروش.. جنيهات للدائنين . تخرجت .. فلم اجد عملا . اصبحت في بطالة .. اختي لا تزال معنا .. اولادها ... اربعة ..

مسكين .. ابي .. !!

خرج الى عمله ذات مرة بعد قليل غادرت المنزل خلفه . وصلت الى ميدان الحسين .. وقفت ذاهلا .. لمحته .. يضع طرف جلبابه المهترىء في فمه .. كان لا يزال يدور في الميدان، مقطب الجبين، زائغ العينين، يشير للناس باشارات من يده .. حائرة

مسكين ابي اقتربت يومها منه..

ــ : ما لك يا ابي .. ؟؟

نظر الي لم يجب

ــ : انك تدور في الميدان ، ولم تذهب الى عملك ...

نظر الي مرة اخرى ، هبت ريح من ناحية جبل الدراسة .. ازداد عابرو الميدان سرعة ... اعمالهم تنتظرهم ــ حملق ابي في وجهي .. انطلق من امامي فجأة ، اسرعت خلفه .. فجأة اختفى .. ابتلعه الزحام الكبير ...

مسكين ابي ...

من اسبوع لا اكثر .. !!

كنت قد حصلت على عمل متواضع ــ سددت ديونه ــ في عصر يوم جلست في المنزل ــ كنت مرهقا . فجأة .. اندفعت امي الي صارخة .. مولولة .

ــ : امي .. ماذا هناك ..

ــ : ابوك .. ابوك ..

ــ : ماذا جرى له .. ؟؟

ــ : ساعي من الوزارة التي يعمل بها .. جاء في الخارج .. يرفض الكلام .. ويطلب رؤيتك .. حدث شيء ــ حدث شيء ..

ــ .. اين هو .. اين .. اين ..؟؟

اسرعت الى الخارج .. سماء معتمة تكسوها السحب القاتمة .. النهار يحتضر ــ السطح الذي نسكن فوقه بارد ــ كئيب .. ولولت امي ، صرخت امي .. قال الساعي الضئيل الجسد :

ــ انت عماد ابن الحاج حسن ..؟؟

ــ نعم .. نعم ..

صريخ لا ينقطع .. تجمع الجيران .. بكاء اختي .. قال الساعي ..

ــ قوي من عزمك .. ابوك ..

ارتفع الصراخ .. الاولاد انفجروا بالبكاء .. راحت امي تدب جدار الغرفة الخشبي بيدها .. استمر الساعي ..

ــ : كان ابوك يجلس في الوزارة ، يتمتم باشياء غامضة .. لست ادري ما هي .. فجأة .. نهض واقفا .. رفع قبضته الى السماء مهددا .. وصرخ .. ضاعت .. ضاعت .. اربعة .. خمسة .. تسعة .. سبعة .. عبد المنعم البقال .. يريدني ان ادفع .. ليس معي .. ليس معي .. اربعة اولاد .. مطلقة .. كان يهذي .. ويصرخ .. تكالبنا عليه .. ثم ..

ــ صريخ .. جسد امي البدين يهتز .. ولولت اختي ــ الجيران يتهامسون ــ الخبر ينتشر .. الريح اصبحت جافة .. الرائحة تملأ انفي ..

... مسكين .. ابي ..

من بعيد لاح المبنى .. غبار .. تراب ــ امي المريضة .. الان في المنزل .. التراب الجاف ..

ــ مسكين ابي ...

... من بعيد لاح المبنى الكبير مرة اخرى .. اكثر وضوحا وحوله الاشجار الجرداء الساكنة .. وازدادت خطوات عماد وهو يقترب من الباب الكبير الذي تزاحم امامه الناس والباعة ...

حسنا.. ما يزال الوقت مبكرا ..

القاهرة — جمال احمد الغيطاني

« حمص » في شعر نسيب عريضة

بقلم عبد المعين الملوحي

* * *

عندما غادر حمص كان ينتزع نفسه وجسمه منها انتزاعاً، يتلفت صوب البحيرة ويرى طيوراً ترفرف فوقها ، فيقول ليتني كنت طيراً من هذه الطيور ، ويتلفت صوب الميماس ويرى الناس يجلسون تحت اشجار الصفصاف يتحدثون ويغنون فيقول ليتني اعيش تحت ظل صفصافة ، ويتلفت نحو « الدوير » ويرى خلانه يسمرون ويشربون ، فيقول ليتني كنت واحداً من هؤلاء الخلان .

ثم يعود الى حيه ومنزله ، هذا المنزل الحجري الذي تطعم جدرانه السود احجار قليلة بيض ، وارض الدار وقد رصفت ايضا بالحجارة السود وبدت الاعشاب الخضر بين الحجر والحجر كانها تتحدى الموت ، فيقول ليتني اعود اليها، والزقاق الضيق المرصوف بكتل الحجر فيقول ليتني امشي فوقها ، ويرى حمص جاشمة منبسطة بين جبال عكار تحاول ان تضيئها بثلوجها البيض ، وبين الصحراء الواسعة تحاول ان تبتلعها برمالها الصفر ، فيقول ليتني ابقى فيها ، اغسل وجهي بالثلج ليتني اكحل عيني بالرمل .

ان بلده عزيز عليه ، حبيب اليه ، ولكن ماذا يصنع به ؟ ولا كرامة له فيه ، المستعمر التركي يجثم بكلكلة على صدر أمته ، يخنق نسمات الحرية ، وهو يحس في اعماق نفسه انه شاعر حر ، والمستعمر التركي يأكل كل خيرات بلاده ، وهو يشعر في حنايا معدته انه جوعان ، مضى الفتى اليافع يبحث في امريكا عن الحرية وعن اللقمة ... مضى وفي قلبه غصة ، اترى يعود اليه الى وطنه وقد اصبح كلاهما حراً ، اترى يعود اليه الى بلده وقد اصبح كلاهما غنياً .

كان في الثامنة عشرة من عمره حين غادر بلده ، وكان في الثامنة والخمسين من عمره حين مات في مهجره ، وبقي اربعين عاما ، بقي نصف قرن تقريبا وهو يحمل هذا البلد في قلبه ، حجاره السود ، وصفصافه المستحيي ، وعاصيه الكبير ، ودويره السكران ، كان في قلب نيويورك، وهو يحمل في قلبه حمص ، وعندما مات كانت وصيته ان يجمل ضريحه من حجار سود .

ولم يعد الى حمص حشو كفنه ، بل لم يجعل ضريحه من حجارة سود ، وهكذا فقد عجزت مدينة كاملة ان تنفذ وصية ولد من اولادها ، شاعر كبير من شعرائها ، احبها كما لم يحبها احد ، ولم يكلفها امراً عظيما ، كلفها ان تجعل قبره من حجارها السود ، هذه الحجارة التي ترصف بها شوارعها ، والتي بدات تنفذ صبر الشوارع عليها فهي تريد ان تكون مرصوفة بالاسفلت بدل الحجارة ترتبط حمص في قلب الشاعر وفي ديوانه « الارواح الحائرة » بالوطن العربي اولا وبسورية ثانيا . انه عربي قبل كل شيء لا يعترف بالحدود المصطنعة بين الوطن العربي ، فالشام شامه ومصر اخت لبنان، واقداسه في فلسطين، وعواطفه تستمد وقودها في نجد ، وكعبته في مكة ، ان العروبة هي عروبته يمشي في مرابعها ومخارفها ومصايفها ومشاتيها ما بين العراق على الخليج ووهران على ابواب المحيط ، وهو يزهو لانه يلبس ما ينسجه النول في جورة من جور النساجين في حمص ، ويزهو بثوب آخر هو ثوب فخاره بمجد امته .

في « الارواح الحائرة » قصيدة رائعة عنوانها « نشيد المهاجر » جعل منها الشاعر ملحمة قومية قل ان يكون لها نظير في الشعر العربي في سعة نظرتها الى الوطن العربي ووقدة عاطفتها نحوه وسمو تفكيرها في نهضته ، مع احساس مرهف ، وشعور قومي فياض ، ومزج للمشاعر الشخصية الحلوة بالمشاعر العامة القومية ، فكأنك تقرأ قصيدة ذاتية ترى من خلالها حبه لوطنه ونظرته الى امته :

قال الاستاذ فريد جحا في كتابه « الحنين واللقاء في شعر المهجر » .

« اما نسيب عريضة فقصائد الحنين لديه تغدو قصائد قومية رائعة . ان قصيدته « نشيد المهاجر » معرض لافكاره في القومية والوحدة ومقومات الامة » .

لقد قضى الشاعر في غربته ثلاثين عاما لم يندمل له جرح ولا هذبته ليالي البعد ، عاش لا يعرف اهو مهاجر في الغرب ام هائم في بادية الشام ، فالريح يحسبها نسمات الشيح والماء لا يرويه الا اذا كان من لبنان او دجلة وهو في نهاره يحلم بالميماس وافراح الميماس وكؤوس الشراب في الميماس ، انه ذو روح موزعة بين عهدين ، وذو نفس موزعة بين مكانين ، وهو ابن العروبة لا يسلوها مهما اوجعته اوصابها ومصائبها .

ثم ينادي صحبه يرجوهم ان يفسحوا الطريق امام نسمات بلاده لينشق منها رائحة اهله ويهز بها اغصان قلبه وقد كساها ورق الشوق فصارت خضراء يعبق منها ارج نيسان ويرجو الريح ان تتغلغل بين اضلاعه حتى تصل الى كبده فتخفف نار فؤاده وتذكره بآماله في العودة الى وطنه ، ثم يسألها ان تعطيه جناحين ليطير بهما اليه ويرفرف بهما فوقه ، ولا ينسى الشاعر يوم الوداع ، ودموع الغزلان ولوعة الاحباب ، فالاهل اهله ، وهو في شوق اليهم حين كان بينهم فكيف لا يشتاق اليهم وهو بعيد عنهم ؟ وهو مخلص لهم ان انكروه ، وهو ذاكر لهم

* القيت في مهرجان الشاعر العربي الكبير « نسيب عريضة » الذي اقامه له المركز الثقافي العربي في حمص .

ان نسوه ، وهو محب لهم ان ابغضوه ، وهو مشارك لهم في جهادهم حين يجاهدون وملب نداءهم حين ينادون . وهكذا تمتزج العاطفة الوطنية بالعاطفة الشخصية امتزاج الماء بالخمر .

قال نسيب في « نشيد المهاجر » :

تهذ في الغرب ذكر الارز والبان   ما هذبتك ليالي البعد يا غاني !
احاضر انت ام باد ـ امهتجر   في الغرب ام هائم في بيد قحطان ؟
أكلما هبت الارياح خافقة   تجر في ذيلها انفاس ريحان
حسبتها نسمات الشيح فانطلقت   من اسرها زفرات العاجز الواني !
وليس يرويك الا نهلة بعدت   من ماء دجلة او سلسل لبنان
وحلم يومك في الميماس محتفل   بالغيد والصيد في اعراس ندمان
من انت ـ ما انت ؟ قد وزعت روحك في عهدين من شاسع ماض ومن داني
انا المهاجر ! ذو نفسين واحدة   تسير سيري واخرى رهن اوطاني
ابن العروبة ـ لا اسلو الربوع ولو   كانت مثيرة اوصابي واشجاني
بعدت عنها اجوب الارض تقذفني   منى حثثت لها ركبي واظعاني
ما ان ابالي مقامي في مغاربها   وفي مشارقها حبي وايماني

صحبي، دعوا النسمات الميس تلمسني   فقد عرفت بها انفاس كثباني
تدفقي يا رياح الشرق هائجة   فانت لا شك من اهلي واخواني
هززت اغصان قلبي بعد ما خلعت   ثوب الربيع فماست رقص نشوان
كسيتها ورق الاشواق فازدهرت   خضراء يعبق منها روح نيسان
تغلغلي بين اضلاعي الى كبدي   وخففي من حرور السائل القاني
وذكريني بما انسيت من امل   وجنحيني ارفرف فوق اوطاني !

انا المهاجر ـ لا انسى الوداع وما   جرى من الدمع في اجفان غزلان
ولوعة في حشا الاحباب ما بردت   عللتها بلقاء ... رهن ازمان
مرت ثلاثون ـ لم انس العهود وهل   تنسى مواثيق ارحام وايمان
الاهل اهلي ، واطلال الحمى وطني،   وساكنو الربع اترابي واقراني
قد كنت اشتاقهم والعين تنظرهم   يا عظم شوقي على بعد وهجران !
ان انكرونا فما والله ننكرهم !   وان جفوا لا نقابلهم بنسيان !
نحبهم كيفما كانوا وان ركبوا   مراكب الهجر من آن الى آن
هيهات نطلب بالزلفى محبتهم   تأبى المحبة ان تشرى باثمان
والمال اهون مبذول اذا رفضوا   شوقا بشوق وتحنانا بتحنان

انا الذي ان تناسى الناس قومهم   هيهات ينسى وما الكفران من شاني
ان جاهدوا كان قلبي في جهادهم   وان تنادوا يلب الصوت وجداني
لا حد عندي اذا جارت حدودهم   الشام شامي ومصر اخت لبناني
وفي فلسطين اقداسي ، وعاطفتي   في نجد ، والقبلة السمحاء ايماني
لي العروبة امشي في مخاوفها   من العراق الى ما بعد وهران
ازهو بثوب فخار من مناسجها   حتى تقرب ايدي البين اكفاني

والشاعر بعد ذلك مواطن من سورية العربية ، يحدد موقعها الجغرافي فوق سطح الارض ، انها بين البحر غربا وبادية الشام شرقا . قال في قصيدة عنوانها سورية :

بنت بيتها عند ام الطريق   بين المدائن والبادية

وهو يحب وطنه الصغير سورية كما يحب بلده الصغير حمص ، وله في ديوانه اربع قصائد جمعها تحت عنوان « نفحات وطنية » يتحدث فيها عن سورية وعن الامها في العبودية ، وامالها في الحرية ، يشبه سورية في القصيدة الاولى « بالشجرة اليابسة » لقد كانت دوحة باسقة ظليلة تنعم بمنظرها العيون وترتع في ظلها الانعام ، وتأوى اليها الاطيار ، فاذا هي جرداء في القفر تفقد اثوابها الخضر وتعصف بها الرياح وتنكرها العيون وتزدريها الانعام وتجفوها الطيور وتصهرها الشمس فلا يرومها الا البوم ولا يسرح فيها الا النسور الجوارح .

دوحة جرداء في القفر   حار اذ شاهدتها فكري
تلك سوريا مدى الدهر   مرصد للبوم والنسر
تلك سوريا ـ فهل تدري ؟

وفي القصيدة الثانية « على المذبح » يقدم لوطنه بخور قلعة فقد آن له ان ينعتق بين الامم ، ويصلي لله ، ويطلب الى كاهن بيت المقدس الصلاة لعل الله الذي حجب رحمته عن وطننا سيرحمنا وهيهات ان تجدي الصلاة ان لم تؤيدها القوة ، يبقى شعبنا اذن عبد الغزاة ، وتبقى ارواحنا ظامئة في اسرهم وتضيع ضحايانا سدى :

يا كاهن القدس انتصب   واتل الدعاء
وارفع لرب محتجب   شكوى الشقاء
هيهات ! عند الوتر لا   تجدي الصلاة
شعبي سيبقى في الفلا   عبد الغزاة
ارواحنا في اسرهم   تشكو الصدى
ابطالنا في لحدهم   ماتوا سدى

وسورية ـ في القصيدة الثالثة كانت دائما بسبب موقعها الجغرافي في وسط العالم بين المدنيات الكبرى وبين الصحراء ، على طريق الشعوب ، مضيافة كريمة ، ولكن الضيوف كانوا ثقلاء ، فطالما شبعوا وباتت جائعة ، وارتووا وظلت ظامئة ، وصاروا هم السادة ، واصبحت هي الجارية ، ثم يدعو الى انقاذ سورية من هؤلاء الضيوف الثقال ببطش الرجال :

بنت بيتها عند ام الطريق   بين المدائن والبادية
واوقدت النار نار القرى   فجاء الضيوف مع الحاشية
فهم شربوا وهي في ظمئها   وهم اكلوا وهي الطاوية
اناخوا ولم يرحلوا في الصباح   وقالوا : الى ليلة تالية
كأني بهم اصبحوا سادة   لها وهي امست لهم جارية
اذا كان ينقذ بطش الرجال   فماذا عسى تفعل الغانية ؟

وفي هذه القصائد الثلاث يبدو لنا وطننا العربي في الشام ، وقد لونه الشاعر بالتشاؤم من مصيره ، فهو مرة شجرة يابسة ، وهو مرة سيبقى عبد الغزاة ، وهو سيبقى عاجزا عن دفع اعدائه ، ولعل نفس الشاعر اليائسة البائسة قد انعكست على الوطن المجاهد ، وشاركته في سوداويته المصير الاليم الذي صار اليه الوطن العربي ومنه سوريا بعد الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٩ وهو العام الذي نظم فيه الشاعر قصائده « نفحات وطنية » ولكنه يستدرك في القصيدة الرابعة « اهزوجة » بعض سوداويته، ويسترد بعض قوته ، فيطلب من الشاعر ان يترك حبه وقيثاره ، وان ينتضي السيف ، وان يصنع من اوتار العود اوتارا للقوس ، وان يخلع قميص العار ويرتدي درع البطل السابقة ، فلنا ثارات كثيرة عند الزمان ، لا يمحوها الا رد عزتنا وكرامتنا البناء ، ثم يطلب من الشاعر ان يهجر الليل

والقمر وينسى تصاريف القدر وان يشعل نار الفكر وضرام الحرية .

يا شاعر الاوطان خل الهيام
قم حطم القيثار وانض الحسام
واصنع من الاوتار
قوسا لاخذ الثار
واخلع قميص العار
والبس ردا الجبار
ثاراتنا شتى عند الزمان
لا تمحى حتى نأبى الهوان
فانزل عن الاقمار
لاترقب الاقدار
اشعل لدينا النار
واضرم بها الافكار

ولكن تشاؤم الشاعر لا يتركه الا في فترات قصار ؛ لا تكاد يطل على نفسه شعاع من نور التفاؤل حتى يغمرها ليل من ظلام التشاؤم ، فاذا هو يرى بلده الذي حمله معه في قلبه الى مهجره ، ووطنه الذي لم يغادر خياله ، يرى الناس في حمص وفي سورية يموتون جوعا وسغبا ، يذلهم الطغاة ويقتلونهم ، ينتهكون اعراض نسائهم ، وينهبون خيرات اراضيهم ، وينصبون المشانق لاحرارهم وفي مقدمتهم الزهراوي وسلوم ، وهم لا يتحركون ولا يغضبون فيرسل قصيدة « النهاية » تحمل الينا فجيعته بوطنه ، وتهكمه بالمهاجرين الذين غادروا اوطانهم للتجارة ولم يشاركوا في مآسي امتهم ، ولست اجد في الشعر العربي الحديث كله قصيدة : تجمع على صعيد واحد مأساة امة عربية كاملة في كل دقائقها وتفصيلاتها ، ودعوة عربية مجلجلة في صمت ، صاخبة في حقد ، صريحة في مرارة ، كما تجمع هذه القصيدة : لقد ارسل اليه اخوانه في حمص اخبار بلده ، اخبار الناس يتخاطفون الارغفة في طريقها الى الافران او في عودتها منها ، اخبار الناس يأكلون القطط والكلاب ، اخبار الناس يأكلون جثث الموتى ، اخبار الناس ممن لا يجدون ما يأكلون ، لا يجدون القطط ولا الكلاب ، لا يجدون حتى جثث الموتى ، يتساقطون آحادا وعشرات في شوارع المدينة فينقلون في الطنابر مجموعات الى المقابر ، كل هذا سمع به نسيب فكانت قصيدة النهاية نهاية الالم والحقد والثورة : نظمها في اذار ١٩١٧

كفّنـوه !
وادفِنوه !
أسكِنوه !
هوة اللحد العميق
واذهبوا ، لا تندبوه ، فهو شعب
ميت ليس يفيق
ذلّلوه ،
قتّلوه ،
حمّلوه ،
فوق ما كان يطيق

لا ، وربي !
ما لشعب
دون قلب
غير موت من هبة
فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعف
ويصفي كتبه
وللتاجر
في المهاجر
وللنفاخر
بمزايانا الحسان

حمل الذل بصبر من دهور
فهو في الذل عريق .
هتك عرض ،
نهب ارض ،
شنق بعض ،
لم تحرك غضبه
فلماذا نذرف الدمع جزافا ؟
ليس تحيا الحطبة !

ما علينا ان قضى الشعب جميعا
أفلسنا في امان !
رب ثار —
رب عار —
رب نار —
حرّكت قلب الجبان
كلها فينا ولكن لم تحرك
ساكنا الا اللسان .

وعندما اشتعلت نار الثورة السورية وسمع بأنبائها وكوارثها ، نظم في عام ١٩٢٦ وفي حريق دمشق قصيدته « موكب الجثث » تحدث فيها عن وطنه وما يقاسي من ويلات الاستعمار والانتداب ونادى تيمورلنك وجنكيز لينظرا ما يصنعه ابناء السين ، لقد جددوا مذابح المغول ، واعادوا في القرن العشرين ما قام به التتر في القرون الوسطى :

صليل سلاح وقرع طبول وجند قساة تسوق الحمول
وفوق النياق حماة القبيل تدلوا قتيلا بجنب قتيل
عراة على مشهد الساخر
دمشق : انظري ويك من ناظر
غنائم ذي قدرة قاهر
دمشق ! انظري شهداء الفداء على النوق صرعى ولا من رداء
فبالانتداب على قاصر
ونصر على أعزل بائر
ودعوى رقي بلا آخر
أيا غرب ويحا أهذا الهدى ؟ علينا سلاحك قد جردا
تمرلنك ! جنكيز ! لا تبعدا فعهدكما اليوم قد جددا
وجاء بنو السين بالباتر
فمن فاتك هاتك باقر
ومن دائس حرمة الطاهر

والشاعر بعد هذا ، وذاك بعد كونه عربيا وسوريا ، مواطن حمصي عريق في حمصيته ، مفاخر ببلده ، شديد الاعجاب بأهله ، بل هو يحب حتى حجارته السود ويراها احلى من المرمر والرخام ويحدد نسيب بادىء بدء موقع حمص في سورية ، فهي مثلها واقفة على سفوح جبال عكار بين لبنان والبادية ، تطل على البحر من ناحية وعلى الصحراء من ناحية :

اعرفتها تلك الربوع العالية
ما بين لبنان وبين البادية

ولبنان نفسه يسجد لجارة العاصي ويعبدها ويسفح بين يديها دموعه فتشرب منها ، فيا له من عاشق :

يا جارة العاصي ، لديك السؤدد
لبنان دونك ساجد متعبد
هو عاشق من دمعه لك مورد
وارحمتا لمتيم مصفود
يسقي الهوى من قلبه الجلمود !

هنا يبدو لنا نسيب شاعرا ، لا يرى في بلده الا الجمال: جمال الطبيعة وجمال المراة ، يرى العاصي الرائع ، والصفصاف المستحيي ، والدوير « ربع الكاس والطاس »

فيصف حمص وصفا دقيقا رائعا في نثره وفي شعره ، ويرى جمال المرأة الحمصية عجيبا يزينه العقل والخلق فيفتديها بأمه وأبيه .

ونحن نجد وصف طبيعة حمص في نثره على الخصوص وفي قصته « ديك الجن الحمصي » لقد اختار هذا الشاعر المظلوم فأعاد اليه الحياة في قصته ، ووجد في حياة ديك الجن مجالا رحبا لعرض ذكرياته عن بلده ، ولوصف ملاعبها ومرابعها وعاصيها ومساجدها يبتدىء نسيب قصة ديك الجن بوصف الربيع :

ابتدأت القصة في الربيع، الا تعرفون ذلك الربيع ـ ربيع سوريا ؟ الا تذكرون السماء زرقاء صافية بعيدة القعر ؟ الا تذكرون اللذة التي يشعر بها الانسان حينما يضجع على العشب في أحد المروج او على ضفة النهر ويضع يديه تحت رأسه وينظر الى السماء الزاهرة ليلا ويعد نجومها ويستغرق في احلام فردوسية ، فيشعر بتخدر في نفسه وكيانه ، فلا يدري الا وقد امتزجت خلاصة روحه بالحان الخرير والحفيف وببصيص النجوم وذرات الاثير ؟

اجل ابتدأت قصتنا في الربيع حين كان النهر والمرج والبستان والانسان تتلذذ جميعا بانفاس النعامى وارواح الخزامى ، حين تقترب الشمس من الارض اقتراب الحبيب من الحبيبة لتزيل بحرارتها المنعشة غشاء الشتاء الجليدي عن القلوب ، فتتملص اعصاب القلب من قيودها الباردة وتسعى الى الحب ونوره والهيام ولهيبه ظامئة ، مشغوفة، مستسلمة .

ثم يصف العاصي ولا ينسى اشجار الصفصاف :

اما العاصي فكان يجري في منحدره متدفقا بسرعة وقد نشطت مياهه وهرعت في جريها تزاحم نفسها كأنها فرس كريمة تجري في المضمار والزبد على اشداقها ، وكان للمياه هنالك خرير وهدير ولا سيما حيث كان العاصي ينقلب ظهرا لبطن منحدرا دفعة واحدة بكل قوته من شلال « خرخز » الجميل مسرعا بفروغ صبر لتقطع امواجه المسافة الشاسعة التي تفصلها عن احضان حبيبها البحر.

كل هذا لم يؤثر على مخيلة الشاعر الذي اعتاد ان ينظم من كل مشهد من هذه المشاهد قصائد برمتها بل نظر الى الطبيعة بعين غير مبالية ، ثم قصد غابة الحور متلصصا متحذرا وهو يحسب انه سيباغت الفتيات هنالك كعهده بالامس .

كان المكان خاليا خاويا قد تربعت فيه الظلال تحت رواق كثيف ، وخيل لديك الجن انه يسمع في حفيف الغابة ضحكة مستهزىء ، فتنفس الصعداء كأن صدره بركان يقذف الحمم والصخور ، وجلس يائسا في طرف الغابة تحت شجرة مزهرة من الزيزفون يراود ازهارها النسيم ويغتصب منها اريجها العذري معتديا على حيائها بين اشجار الصفصاف المتفلية في الشمس على اقدام العاصي.

ولا ينسى نسيب الطاحون على العاصي ولا الجسر الذي يمر بها ولا الوعر وصخوره ولا منظر جبال لبنان واذيال آكام عكار :

لم يمش ديك الجن مع رفيقه على طريق المدينة بل سارا يتوغلان في غياض الميماس حتى وصلا الى الجسر قرب الطاحون التي بناها الرومانيون على العاصي فقطعا الى الضفة اليسرى وسارا في طريق غير مطروقة متوجهين نحو الشمال كأنهما يقصدان ان يهربا من العمران ويبتعدا عن الانسان .

وبعد قليل خرجا من منطقة الرياض والبساتين ووصلا الى الوعر وهو سهل صخري على مقربة من ضفة العاصي اليسرى به تنتهي اطراف هضبات لبنان واذيال آكام عكار، وانبسطت امامهم الارض مسقوفة بسماء النجوم ترلج عليها العين من افق الى اخر .

وكانت الظلمة الباهرة تغطي الغبراء ، وقد تفتحت عيون الليل الساهرة تفتح الاكمام ، وتنفس فؤاد السكون الصعداء ، وكانت السكينة صافية رائقة روق الماء الزلال غامرة العالم كله بأمواجها السحرية متصاعدة حتى السماء جالسة على عرض الارض بسلطان .

بل لا ينسى نسيب جسر طاحون « خرخر » ، وغابة الحور هناك على ضفاف العاصي :

اسرع الصديقان يتطلبان معبرا في تلك الجهة التي لم يطرقاها من قبل ، وبعد قليل وصلا الى الجسر المعروف بجسر طاحونة خرخر فقطعاه عائدين الى منطقة الرياض والبساتين ، وعرض لهما بعد الجسر مرج كبير على ضفة العاصي فسارا تغرق ارجلهما في مخمل عشبه الرطب قاصدين غابة الحور التي بدأت تتجسم اشجارها امامهما كقامات اناث الجبابرة .

بين الاشجار على مرجة صغيرة تجلت للرفيقان نار مؤرجة يثب نورها من جهة الى جهة ويلتطم بالظلمة العنيفة فيتهادى قليلا ثم يسري في عروقها ويطرد الظلال الكثيفة الى تحت الاشجار البعيدة الهاجعة ، ثم تضيع اطرافه بين زخارف الاوراق والاغصان .

ويعرض نسيب بعد قليل شعوره نحو « الدوير » على لسان ورد حبيبة « ديك الجن وضحيته » .

ان هذا المكان وما حوله مع ذلك الدير الصغير والقرية التي بجانبه واسمها الدوير هو حمى لنا نحن النصارى لا يتخطاه المسلمون اكراما لشواعرنا ، فهو لنا منزل واحد بلا اسوار ، وخدر لا يحجبه الا الوقار ، وقد جرت العادة ان نخرج اليوم نحن عذارى النصارى من المدينة في بدء الربيع يوم الاثنين اول الصوم الكبير الذي ندعوه نحن «اثنين الراهب» ونعيد الكرة بين كل آونة واخرى فنقضي نهارنا وليلتنا بالنزهة واللهو ، فجئت الليلة انت ورفيقك وافسدت علينا لهونا ، ولولا انك من اهل العلم والادب

لطرحت صوتا يخف اليه كل سميذع من شبابنا فيطردونكما طردا شائنا ، اذهبا في طريقكما .

— ولكن من يبصر جمال وجهك ولا يضل الطريق ؟

— هوذا الطريق امامكما تسلكانها حتى تبلغا القرية ومن ثم تريان على ضوء النجوم قبب مقام السيد خالد بن الوليد فلا تضلان الطريق .

واسمع قوله : مقام السيد خالد بن الوليد ، السيد خالد بن الوليد هذا هو التعبير الذي كان ولا يزال على لسان اخواننا النصارى في حمص .

ونسيب من حي من احياء حمص الشرقية ، وكذلك كان ديك الجن فهو يذكر حيه الشرقي ، ويذكر طلوع الفجر في ازقة هذا الحي .

خرج من منزله في الحي الشرقي هائما على وجهه ، فأبصر الفجر قد عرى الارض من لباسها كما يعري النخاس الاماء في سوق الجواري ، وشاهد يد الصباح الضئيلة تحول المدينة المهيبة الرابضة في الظلمة الرقيقة الغبراء الى بيوت ودساكر سخيفة مسجونة بين الازقة .

وهواء حمص لا ينساه شاعر حمص فهو يهب عليلا ناعما رخيا ، ولكنه لا يلبث ان ينقلب ريحا عتية عنيفة .

وهب نسيم لطيف انقلب بعد قليل ريحا عنيفة صدمت الباب فأطبقته بشدة كأنها تريد ان تمنع عيون السماء من رؤية جريمة ارتعدت لها سكينة الافلاك .

ونسيب لا ينسى اهل حمص ، لا ينسى ان فيهم المسلم والمسيحي ، وهو يريد ان يتعانقا كما تعانق ذات يوم ديك الجن وورد ! دون ان يشير طبعا الى نهاية هذا العناق .

وهنالك لاول مرة ضمها ديك الجن الى قلبه ، وهنالك في عناق اشعة الشمس المخدرة شرب كاسا طافحة من قبلاتها وهو يسر اليها كلمات الحب والهيام ، وهنالك تعانق الاسلام والنصرانية في شخصين محبين هازئين بأجيال من الخرافات والضغائن والشرائع الفاسدة .

ولا يدعي نسيب انه هو الذي كتب قصة ديك الجن ، بل انها قصة :

« روتها لي امواج العاصي في اصيل يوم من ايام الصيف ، واكدتها لي نسمات الوعر العاتية » .

وتبقى حمص في شعر نسيب كما كانت في نثره ، بل اكثر مما كانت في نثره مصدر الهام عميق للشاعر الكبير : انه يحب كل من فيها وكل ما فيها ، ان قلبه يتسع لبساتينها وحدائقها وازقتها وحجارتها واشجارها ، انه وهو في نيويورك يتذكر بلده ، ويتذكر بساتين حمص وما تحفل به اشجارها من فواكه ، وتذكره بها « سلة فواكه » رآها في الطريق فيطير قلبه حنينا الى وطنه .

واستوقفتني على حانوت بقال ... عيني وقوف مشوق عند اطلال
لسلة ذات الوان واشكال ... فيها فواكه لم تخطر على بالي :
ثمار كرم وتين فوق رمان

سل عليه ثمار الشرق احلاها ... لمتجر عرضوها لا لمغناها
وقفت ارقبها والقلب قد تاها ... في بحر ذكرى تناديني بقاياها
الى عصور خلت من قبل ازمان

وقفت رغماوحولي الناس ما وقفت ... اراقب السل ، والاثمار قد بسمت
كأنها اذ رأتني ذاهلا عرفت ... اني غريب فحيتني وما نطقت
فطار قلبي حنينا نحو اوطاني

ويذهل الشاعر عن نفسه فاذا هو يمضي في قلب التاريخ يرافق الملك سليمان ويسجل غرامه ويردد آيات من التوراة ، ثم يعود الى وعيه فينادي رياح حمص لتحمل اليه احبته او تحمله الى احبته :

استيقظي يا رياحا ذات تهياب ... عرجي بلبنان ، فالارزات في الغاب
مري على جنتي تقطر باطياب ... عسى يعود حبيب نحو احباب
فيجتني من قطوف كلها دان

هذا غرام مضى في سالف الحقب ... ولم يزل ذكره في الناس والكتب
رايته بخيال الروح عن كثب ... ثم استفقت فلم ابصر سوى عنب
وما على السل من تين ورمان

قال شوقي ضيف :

« اما نسيب عريضة فلمح سلة معلقة على حانوت ، وقد غصت ببعض الثمار مما كان يعهده في بلاده ، فطار قلبه نحو اوطانه ، وحلق خياله فوق دياره وانشد قطعة رائعة يصور فيها هذا الحلم اليقظان الذي انشئت فيه روحه ، وشكر قلبه وكثيرا ما كان يمثل له وطنه في هذه الرؤى الصادقة ، فاذا هو يتشح بهذه الالوان المثيرة التي تجمع له ذكرياته ، كما تجمع له لوعته وحرقته واشتياقه . »

ومات اخو نسيب فرثاه نسيب رثاء موجعا وذكره ، انهما كانا معا غريبين عن وطنهما ، وها قد انتهت غربة احدهما وبقي الثاني يكابد غربتين ويرقب العودة الى اخيه والى وطنه :

غريب على الباب حاز الدخولا ... والقى عصاه والفي مقيلا
غريبين كنا فقصرت عنه ... فادرك قبلي الحمى والقبيلا
فاصبح مستوطنا آمنا ... وما زلت في الركب ارعى الحمولا
اكابد في غربتي غربتين ... واحمل عبء الحياة الثقيلا
وارقب في البعد نار الخلود ... عساها تلوح فتهدي الضلولا

كل هذه القصائد كانت تعرض لحمص في شكل مباشر او غير مباشر ، ولكنها لم تكن مقصورة عليها مخصوصة بها، وفي الديوان قصيدتان اثنتان في حمص خاصة ، يسمى اولاهما «غادة العاصي» ويسمي الثانية «أم الحجار السود».

اما غادة العاصي : فلا ندري من هي ، قد تكون هذه الغادة حمص نفسها ، يتغزل بها على طريقة المتصوفين ، وقد تكون غادة حقيقية ، صديقة من صديقات صباه ، فتاة حمصية الجدين ، لقيها قرب « الساقية » فلم ينس لقاءها ، ومشى معها في المروج الخضر عند الوعر او في باب عمرو ، او في بساتين الميماس ، او غابة الدوير ، فهو يحبها ويحب حمص لانها انبتتها ، وحمص جمال نسوتها عجب والحق ان هذه الغادة ربما كانت هذه وتلك في آن واحد ، وكيف لا يختلط الحب ، حب بنت البلد وحب

البلد في قلب الشيخ مضى عليه حين نظم القصيدة ثلاثون عاما وهو يحمل حبه في قلبه بعيدا بعيدا .

قلب يعيش على منى لقياك
ناداك ... لو تدرين كم يهواك
ناجاك دهرا قبلما سماك
ودعا سواك وما عنى الاك
واليوم يشهر نفسه بهواك
عرف الصحاب صبابتي فتساءلوا
« بمن الفتى عن لهونا يتشاغل ؟
هي نشوة في القلب ظل زائل
من بعدها يصحو وينسى الغافل »
... فاجبتهم : حبي قديم زاكي !
هو راسخ في النفس ما بقي الجسد
ولقد يدوم مع الخلود الى الابد
حوريتي لا تسألوا عنها احد
او ما علمتهم انها بنت البلد
من حمص مطلع لحظها الفتاك
فتحت لقلبي قصره وعلاليه
فوق المجرة بنت حمص الغاليه
وهواك ، لا انساك قرب « الساقيه »
او في المروج وفي الرياض الزاهيه
واحب حمص لانها محياك
حمصية الجدين ، يا نعم النسب
انت الفريدة بين غادات العرب
بك تضرب الامثال في كتب الادب
قالت : « وحمص جمال نسوتها عجب »
بابي جمالا زنته بنهاك
انت المليحة ، مهجتي تفديك
حسن البداوة والحضارة فيك
وفتنت ديك الجن ، ويح الديك !
« فتكات لحظك لا سيوف ابيك »
اودت به فقضى شهيد هواك
يا غادة العاصي الرضية في النسا !
حياك ربك في الصباح والمسا !
لست الوحيد على هواك تنفسا
لكن قلبي كله ذلك كرسا
هو مقدس لك وحيه عيناك

والقصيدة الثانية اشهر قصائد الديوان : لقد اعطى نسيب مدينته حمص لقبا جديدا ، كان اسمها مدينة خالد بن الوليد فأصبح لها لقب ثان هو « ام الحجار السود » ومن العسير علينا ان نحلل هذه القصيدة ، ففيها من العواطف الجياشة ما لا يكاد يحصره حد :

تقع القصيدة في ٧٠ بيتا يجمعها اربعة عشر مقطعا كل مقطع يتالف من خمسة ابيات ، الابيات الثلاثة الاولى منها ذات قافية واحدة والبيتان الاخيران في المقاطع كلها قافيتهما واحدة مشتركة هي الدال .

يتحدث في المقطع الاول عن صور حمص في خاطره ، وفي المقطع الثاني نجده يراقب برقها ويذوب حنينا اليها يوثقهشوقه بقيودمن حديد، وفيالثالث ينكرعلى قلبه شدة خفقانه وهو الذي ظنه قاسيا صلب العود ، وفي الرابع تختال عروس العاصي امام عينيه وسائل قلبه في الخامس ايعرفها واذا ذكرياته تنوب عن قلبه فتنادي .

يا حمص ، يا بلدي ، وارض جدودي

وفي السادس يتحدث الشاعر عن جبروت حمصوعن وفائها ، انها بلد الهدى قد تقول ولكن احجارها سود ، نعم لله در هذا السواد المعبود ، يا حمص يا ام الحجار السود .

وفي السابع يتساءل عن هينمات يسمعها ، اتراها نسمات الوعر ، ام هي روح ديك الجن تطوف في الربوع ، ام هي انغام موشحات الشيخ امين الجندي « شاعر حمص في القرن التاسع عشر » .

ويعدد في الثامن مرابع حمص : الميماس الذي يحن اليه ، والدوير الذي يشتاق خمره وكأسه وغزالهوكناسه ويعرج على قبر سيف الله خالد بن الوليد ويخصهبالمقطع التاسع كله ، ويسجل في العاشر حب لبنان لحمص فهو يبكي شوقا اليها ويسقيها الماء الزلال من قلب جباله فهي تشرب من دموعه ، وما دموعه الا نهر العاصي .

والعاصي في المقطع الحادي عشر هو الكوثر ، هو نهر من انهار الجنة لا يطفىء ظمأنا ، ولا يبل حرقة اضلعنا واكبادنا الا ماؤه العذب النمير .

ويتساءل في المقطع الثاني عشر عن موعد ورده ، فقد طالما خلاه الدهر عن العاصي ولم يف بوعده .

وتبلغ القصيدة في المقطع الثالث عشر ذروة المأساة ، ان الشاعر وقد طال بعاده عن وطنه يصرخ في حرقة ما بعدها حرقة متى اعود ؟ ويوصي اذا لم يعد اليه حيا ان يعاد اليه ميتا ، وان يجعل ضريحه من حجارة حمص السود .

لهف نفسي ! شاعر حمصي كبير يتحرق طلبا لقبر من حجارة ، فلا يصل الى هذا القبر ، ولا تنفذ له وصيته ، وهو ميت .

لهف نفسي والحجارة السود تعبث بها في حمص حوافر الخيل ، وتدوسها اقدام الناس وتتختر فوقها اطر السيارات .

ويبدو الشاعر العربي في آخر مقطع من القصيدة وقد آمن بالتوحيد في حب الوطن ، في حب حمص ، فقد انتهت اليها آماله ، وهي مبتغاه ومشتهاه ، وهو يرى فيها المحاسن كلها ، وهو ينفث في آخر صرخة له آخر قطرة من دمه :

يا حمص ، يا ام الحجارة السود

ثم ينطفىء سراج العمر ، ويقف القلب عن الخفقان ، ويموت الشاعر الملهم ، وتبقى عظامه تتململ في قبرها الرخامي الابيض في نيويورك باحثة عن قبرها الحجري الاسود في حمص .

صور تلوح لخاطر المعمود
ما بين ارباض المنى والبيد
خفاقة فيها بنود العيد
بسامة فيها ثغور الغيد
تجلو رؤى ماضي الهوى المفقود

وقف الفؤاد اسير بارق نارها
يهفو الى ما لاح من اسرارها
لمن الديار تذوب من تذكارها
من بعد طول نوى وفرط جحود
يا موثقا من شوقه بقيود ؟ !

يا قلب ، ما هذا الخفوق وما ترى
في ما توهمه الخيال وصورا ؟
تبكي ، كانك بعض افئدة الورى
وظننت انك صرت صلب العود
اشجتك رؤيا يا اخا الجلمود ؟

رفعت لطرفك من مكان قاص
تختال بين حدائق وعراص
أعرفت ، يا قلبي ، عروس العاصي
محبي امانينا ، ومحيا الجود
ونعيم راض بالوجود سعيد !

اعرفتها : تلك الربوع العاليه
ما بين لبنان وبين الباديه ؟
... الذكريات ، وقد برزن علانيه
نادين عنك بحسرة المطرود :
يا حمص ، يا بلدي وارض جدودي !

جثمت بكلكلتها على درب الامم
جبارة من طبعها رعي الذمم
بلد الهدى ، احجارها سود - نعم !
لله در سوداك المعبود ،
يا حمص ، يا ام الحجار السود !

انسيم وعرك ما سمعت مهينما ؟
ام روح ديك الجن من خلف الحمى
ام شيخنا الجندي حن ورنما
متغزلا بمعاطف وقدود
بيضاء في ظل الحجارة السود ؟

ماذا يكابد في النوى ويقاسي
صب يحن الى حمى الميماس
والى الدوير - الى ربوع الكاس
وكناسها وغزالها الاملود
والى مغاني نعمة وسعود !

حمص العدية ، كلنا يهواك
يا كعبة الابطال ، ان ثراك
غمد لسيف الله في مثواك
ولكم لنا من خشعة وسجود
في هيكل النجوى ، ومن تمجيد !

يا جارة العاصي ، لديك السؤدد
لبنان دونك ساجد متعبد
هو عاشق من دمعه لله مورد
وارحمتا لمتيم مصفود
يسقي الهوى من قلبه الجلمود !

عاصيك كوثرنا ، لنا في ورده
طعم الخلود ونكهة من شهده
هيهات يوما نرتوي في بعده
ونبل حرقة اضلع وكبود
الا بسلسل مائه المفقود

حادى العطاش الى موارد ماء
نفسي لقد ظمئت ، فاين روائي ؟
عللتها بعد النوى بلقاء
والدهر يأبى ان أفي بعهودي
او لم يئن ان تستقر جهودي ؟

يا دهر ، قد طال البعاد عن الوطن
هل عودة ترجى وقد فات الظعن ؟
عد بي الى حمص ولو حشو الكفن
واهتف : أتيت بعاثر مردود
واجعل ضريحي من حجار سود !

يا جارة العاصي ، اليك قد انتهى
أملي وانت المبتغى والمشتهى
قلبي يرى فيك المحاسن كلها
وعلى هواك يدين بالتوحيد
يا حمص ، يا ام الحجارة السود !

قال شوقي ضيف يعلق على هذه القصيدة :

« وهذا تعلق شديد بالوطن وحنين اليه تفيض به نفس نسيب عريضة في هذا الشعر الرائع الذي يبث فيه مواده ، ويذيع فيه مشاعره ، وانه ليرتجف حين يذكر بلده وحجارتها السود ونهرها، واذ يذكر فردوسه المفقود، وما كان يهنأ به من شراب الخلود ، وانه ليتمنى ان يعود الى تلك الديار ومعاهدها التي حل بها تمائمه ، ومس ترابها ، بل مست صخورها ، جلده ، وان كل جزء من روحه وجسمه ليرجو العودة الى مصدره ومنبته . وهو مؤمن بان روحه لا تلبث حين تفارقه ان ترد الى اصلها ، وترفرف على ام الحجارة السود ، اما جسمه فانه هو الذي يخشى ان يدفن بعيدا عن مغرسه ، ويرمى غريبا عن كهفه ، لذلك يتوسل الى صحبه ان يعودوا الى وطنه ، يعودوا بهذا العاثر الذي ضل طريقه المضيئة وما يشع عليها من شمس الوطن ، وما يجللها ويسترها من ظلاله ، يعودوا بالجسم الى الارض التي خرج منها ودرج عليها ، الى امه لتضمه الى صدرها وتفسح له منزلا مباركا طيبا بين منازلها . »

واخيرا ، وفي قصيدة عنوانها « يا جارتي في الغرب » يسجل الشاعر حديثا حقيقيا او خياليا بينه وبين

صديقة له في المهجر ، في امريكا ، تلومه على حبه لوطنه وارضه ، على ما في هذا الوطن من فقر وخمول ، ويلومها على ما في حضارتها من زيف وتكالب وجشع ، ويذكرها في صراحة وصدق انه ما يزال على خلقه القديم ، وانه ليس من هذا الناس ، وانه ابن الشام ، وانه حر كرياح نجد ، وانه يفضل التمرة العجفاء على الطعام الطيب فوق مائدة اللئام ، ويفضل خرير الساقية على ضوضاء المدينة الكبيرة ، ويفضل فتاة الخدر العذراء على النساء المتمدينات البارزات للغرام ، ويفضل الخيمة الضائعة في الصحراء على ناطحات السحاب ، وتسمع من وراء اربعة عشر قرنا صوتا عربيا مثل صوته : هو صوت البدوية العربية تصرخ في وجه معاوية وفي قصر معاوية :

لبيت تخفق الارواح فيه   احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني   احب الي من لبس الشفوف

يا جارتي في الغرب

يا جارتي في الغرب نامي   كم تسهرين على ملامي !
اسرفت في عذلي وما   يجديك تكرار الكلام
فانا على خلقي القديم   ولست من هذا الانام
يا بنت مجد الغرب في   الفلواء اني ابن الشام
ومعيشتي كسجيتي   تابى الخضوع لذي احتكام

نفسي على عهد البوا   دي لم تزل بين الخيام
هي حرة كرياح نجد   بين كثبان الخزام
ولتمرة في القفر اجعلها   على جوع طعامي
اشهى الي من الاطايب   فوق مائدة اللئام

ولجلسة عند المساء   لدى الغدير بلا كلام
اجدى الى قلبي من   الضوضاء في المدن العظام

منيتني بالناطحات السحب   لكن ، لي خيامي
يهنيك مجد ذويك في   عصر التزاحم والنظام
لكن قومي مجدهم   نبراس امجاد الانام

الى هنا ينتهي بحثنا عن حمص في شعر شاعرنا ، انى هنا نجد هذا الشاعر الذي عاش في حمص وهو في نيويورك ، وفي حي بستان الديوان ، وهو في بروكلين ، وفي داره السوداء ، وهو في ظل ناطحات السحاب .

وللشاعر قصيدة تبدو فيها نفسية الحمصي الساذج ، يعرض على الناس صداقته ليأنسوا ، ويقدم للناس كفه بما عليها من دراهم معدودات لينفقوا ، ويفجر للناس دم قلبه ليشربوا ، فاذا اعرض عنه الناس ، قال لهم انه سيظل ينتظرهم ، فاذا احتاجوا اليه ودعوه فسوف يرونه في انتظارهم ، يلبي نداءهم .

انه الكرم الذي لا يحد سيله ، والعطاء الذي لا يرد تدفقه .

أدن مني

يا نديما على شراب المنايا   ساكتا ما سمعت منه مقاله
ورفيقا في مكتب العمر لا ير   حم جهلي وما حفظت المثاله
ان تجاهلتني وقلت غريب   ليس بالحزم ان نجيب سؤاله
فادن مني مسلما نتعارف   قبل ان يعلن العيان زواله
انا من اقربيك في الدم واللحم   ألسنا من واحد في السلاله
ان هذي الحياة أقصر من ان   تشغل المرء برهة بعلاله
فعلام الزحام والركض والحقد   علام الخصام ، فيم الجهاله ؟

فلنسر صاحبين في مهمة العيش   فنطوي وهاده وتلاله
ساقك الله في طريقي وقد تهنا   فسر واستنر فقلبي الذباله !
انت خلي وانت صاحب سري   وفؤادي يتلو عليك جماله
يا ابن ودي، يا صاحبي، يا رفيقي،   ليس حبي تطفلا او ثقاله
فاجبني بيا أخي ـ يا صديقي   وأعد ! انها ألذ مقاله

واذا شئت ان تسير وحيدا   واذا ما اعترتك مني ملاله
فامض! ... لكنما ستسمع صوتي   صارخا : «يا اخي» يؤدي الرساله
وسيأتيك أين كنت صدى حبي   فتدري جماله وجلاله

أليس في هذه القصيدة ما يذكرنا بقصيدة « الطين » عند ايليا ابي ماضي ؟

لك الله يا نسيب : الحق انك حمصي عتيق عريق .

ان الدعوة الوطنية ، الدعوة الى حب الوطن واهله يمكن ان يكون لها شكلان ، شكلها الصارخ ، يتحدث الشاعر فيه عن مغاني صباه ، وديار اهله واحجار بلاده فاذا انت مسحور بجمال الوطن يتغلغل حبه في حنايا صدرك وخلايا قلبك ، ولقد كان نسيب في اكثر شعره من اصحاب هذا الشعر القومي المهموس الذي لا يقول لك ناصحا احب وطنك ، ولكنه يجعلك تصرخ في اعماقك حين تقرؤه صامتا: « ما اشد ما احب وطني » .

تلك هي حمص في شعر نسيب ، جزء من وطن عربي صغير هو سورية ، ثم جزء من الوطن العربي الكبير ، تعيش معه في غربته ، وترافقه في حله وترحاله ، وتغطي بيوتها ذات الطابق الواحد ناطحات السحب في نيويورك ، يعرض خيالها له قبل ان يغمض عينيه الى الابد ويوصي ان يكون قبره من حجارتها السود ، لقد عاش في ذكرياتها قبل ان يصبح ذكرى ، ولطالما نادى النسيان ليمسح بانامله قلبه فاذا هو ذاكر لا ينسى ، ولطالما اهاب بالاشباح ان تزول من خياله فاذا هو آهل بها :

انامل النسيان ، مري على   قلبي مرور الوحي في الخافيات
واغمضي فيه جفون الاسى   وأوصدي فيه كوى الذكريات

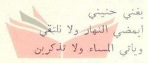
انامل النسيان مري على   أوتار قلبي في حنايا الضلوع
فان في لمسك تعويذة   تغري شياطين الاسى بالهجوع

هكذا لم تحفل الارض بشعر اكثر حنينا من الشعر العربي ، ولم يحفل الوطن العربي بشعر ارق حنينا من شعر المهجر ، ولم يحفل المهجر بشعر اكثر لوعة في حنينه من شعر شعراء حمص ولم تحفل حمص بشعر اكثر التصاقا بها واحياء لها من شعر نسيب عريضة .

خير ما نختتم به حديثنا هذا عن نسيب صورة شعرية عجيبة في بيت واحد به عجيب :

الارج العنبري

أيحلو بدونك كأس الطلا
وهذا خيالك ملء جفوني
بكأسي بالارج العنبري
بسمرة حبي
بأغلى ظنوني
بدنيا تضوع وحلم يبوح
ولحن من الخلد داني الغصون
لئن بكت السحب هذا الفراق
فدمع السحائب دمع عيوني
مناي ويا الف لباك قلبي
أيا بسمة من فم الياسمين
ويا خلجة الموج في الشاطىء الاخضر
بين النخيل
يغني حنيني
أيمضي النهار ولا نلتقي
ويأتي المساء ولا تذكرين
لقاء على تلنا المزهر
بعرزال حب ظليل
تكلل بالورد .. والياسمين



الشارقة **صقر بن سلطان القاسمي**

كان يزور الميماس فيعلق عوده على اغصان الصفصاف فيه اذا انتهى من الغناء ، وها هوذا يبعث هذه الصورة القديمة من حياته في صباه فيجعل لليأس صفصافه يعلق عليها عوده ثم يبكي لا ينتهي من البكاء :

علقت عودي على صفصافة الياس ورحت في وحدتي ابكي على الناس

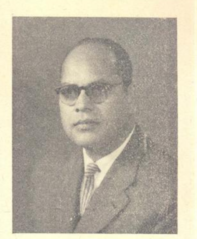
وارحمتا للشاعر الغريب ماذا صنع بنفسه ، حتى صفصاف الميماس كان يعيش في ناطحات السحاب في اميركا .

يا اخي في غربة الروح يا نسيب :

ان تلك الاحجار السود التي جعلها شعرك احجارا سحرية عجيبة حية والتي تمنيت ان يكون منها ضريحك لها قلوب بيض ، طالما تمنيت ان تعود اليها لتجر فوقها قدميك المتعبتين كما كنت تقفز فوقها في صباك ، طالما تمنيت ان تعود اليها لتنتزع بيديك المرتجفتين الاعشاب النامية بين الاحجار في صحن الدار ، كما كانت تنتزعها ذات يوم بيديك الفضتين ، وهي اليوم ، وقد مت بعيدا عنها ، ما تزال تريد ان تكون ضريحا للصدر الذي احبها ، بعد ان لم تستطع ان تكون له بيتا يؤويه ، وصدقني ان الحجارة التي تحبنا اكثر رفقا بنا واشد نعومة على قلوبنا من الحرير الذي يبغضنا .

يا نسيب : الوعر وصخوره ، والميماس وصفصافه ، والدوير وكؤوسه ، سألتها عنك فوجدتها ما تزال تذكرك ، لقد مر بها الكثيرون ، ولكنها قالت لي : انها لم تجد احدا اكثر حبا لها منك ولعلك لن تجد احدا اكثر حبا لك منها .

حمص **عبد المعين الملوحي**



ابو طالب زيـان

الارتجال بين القدماء والمحدثين

بقلم ابو طالب زيـان

* * *



اوضح ظاهرة وقع فيها الاضطراب بين علماء اللغة ، وساد الصمت المحير فيها احيانا هي : الارتجـال : بمعنـى الابتكار والاختراع والخلق ، على انه من طـرق التنمية التي تحتاجها الالفاظ ، كما تحتاج غيرها مـن القياس والاشتقاق والنحت .

ولقد بدا هذا الاضطراب في المدلول العام لهذه الكلمة بين ابن جنى وابن ابي علـي الفارس الـذي كـان يؤمن بالقياس ايما ايمان ، ويحدث تلميذه عنه ، وانه من الممكن للمرء ان يستنبط الفاظا جديدة على نسق ما ورد عـن العرب ، لكن ابن جنى لم يرقه هذا القول ، ولم يأخذ هذه القضية مسلمـة ، ورد بسؤال استنكاري قـال فيـه : أفترتجل اللغة ارتجالا ؟

فقال له ابو علي : ليس هذا ارتجالا بل هو قياس .

غير ان ابن جنى ، قد خلط بين القياس والارتجال ، وعقد فصلا في كتابه : « الخصائص » تحت عنوان : « في الشيء يسمع من الاعرابي لا يسمع من غيره » ذكر فيه : ان رجلا عربيا يدعى ابن الاحمر كان يتردد على الاصمعي ، ويملي عليه الفاظا لم تسمع من غيره ، ثم يروي الاصمعي بعض هذه الالفاظ ، ويذكر كلمة : « البابوس » بمعنـى ولد الناقة وكلمات اخرى لها اصل في اللغات السامية ومستعملة في اللغتين : العبرية والارامية ، وينكر انكارا تاما انها وليدة الارتجال ، غير ان ابن جنى قد وقع امـام استاذه وعلق على كلمة : « البابوس » ووصفها بالعجمـة في الوقت الذي يصف استاذه بانها مرتجلة ، ويصف كلماته بانها اعجمية .

على انني عندما اردت التحقق من صدق هذه الرواية التي تقول بالارتجال ، ورجعت الى كتب الادب ، لم اجد شيئا يؤيد او ينفي بعض هذه الروايات الكثيرة التي ذكرت مفرقة في بعض كتب هي عندي غير معتمدة .

كل ما تقع عليه عين النـاظر في ثبت هـذه الكتب ، قصة منسوبة الى يونس ابن جلبب الذي كان يتردد على رؤبة ويستمد منه كل غريب في مسائل اللغة من الفاظ وتراكيب ليفتخر بها . ويبدو ان رؤبة سئم هذا الامـر وساءته هذه المعاودة ، ونسب هذه الروايات اليه ، فصاح في يونس : حتى متى تسألني عن هذه الاباطيل واذوقها لك ، اما ترى الشعر قد بلغ في رأسك ولحيتك !

من هذه الرواية العجلى ، وهذه الالفاظ المحدودة ، نرى ان رؤبة كان يرتجل ويخترع الفاظا لا وجود لها فـي اللغة ، وانه كان لها وجود في راسه ، وعلى لسان يونس الذي كان يمشي بها بين الناس فـي مختلف القبائل . وشتى البطون : منحولة مدخولة !..

اما ابن قتيبة ، فيروي في كتابه غرائب رؤية ، وكـل الذي يرويه ، نطق غريب سمع عن رؤبة ، وعرف عنه ، ولم يتعده الى غيره مما يقطع بالافتعال ، وحبك الالفاظ ، وجودة الصنعة . فالولق : عند رؤبة (بسكون اللام) بمعنى السير السريع ، وليس هذا بارتجال . ويقول في العالم : العالم ، وليس هذا بارتجال . ويقول ابن قتيبة : ان رؤبة كان يخلط في المعنى ، ويقول في الشعر الـذي روى انه نطق به :

كنتم كمن ادخـل فـي حجر يدا فاخطا الافعى ولاقـى الاسـود

ومما لا شك فيه ، ان اصحاب المعاجم يقولون : ان بعض الالفاظ كان مرتجلا . فابن دريد يقول عن الخليل بن احمد ان هناك كلمات مصنوعة مثل : « ضهيد » بمعنى الرجل الصلب ، ومثل : « عفشج » بمعنى الثقيل الى غير ذلـك من كلمات يرويها ابن دريد مصنوعة ، اذا فهمنا من كلمة مصنوعة ، ان لا اصل لها : فانه يكون الارتجال ، اما اذا كانت مقتبسة فليست من الارتجال .

وعلى اية حال ، فالارتجال لا يكون ظاهرة من ظواهر التنمية في الفاظ اللغة ، ولا طريقا من طرق التنمية العامة لهذه الالفاظ ، وان كان قد لجأ اليه بعض الشعراء ، مثل: بشار بن برد عندما مات له حمار :

قال مات حماري ، فرأيته في المنام فسألته لم مت ؟ الم اكن اطعمك واسقيك الخ ...

قال : انني مت غراما ، ثم انشد شعرا :

سيدي جد بأتانا عند باب الاصبهاني
تيمتني بدلال وبدل قد شجاني
ولها خد اسيل مثل خد الشنفراني

ولما سئل عن: « الشنفراني » قال: انه من غريب الحمار!!

ولقد اختلف المحدثون من اللغويين في امر هذا الارتجال، وانكروه انكارا تاما ، ولكن الكثرة اجمعت على ان الارتجال ممكن ، وهو اصل من اصول التنمية اللغوية في الالفاظ ، غير انه لا يتعادل مع القياس والاشتقاق والنحت .

والامثلة على ذلك كثيرة : فلو عزل طفل عزلا تاما عن الناس ، بعد ان نكفل له كل ما يحتاج اليه ، ثم ننظر في امره ، فاذا نطق بعد ذلك يمكن ان نقول : ان الانسان يمكن ان يرتجل . اما الذين اتيح لهم رؤية اولئك الاطفال الذين ربتهم القردة والغزلان، لم يكونوا لسوء الحظ من اللغويين، حتى يطلعونا على ابحاثهم وتجاربهم .. كل الذي استطعنا ان نصل اليه من هؤلاء الاطفال حقيقة واحدة ، هي : انهم بمجرد ان اندمجوا في الانسانية نطقوا بسرعة ، ودون تعثر او مبالاة ..

وليس اغنى من هذا الدليل الذي ذكره احد اللغويين الحديثين ، قال : ان منطقة في البرازيل لا تزيد مساحتها على مساحة فرنسا ، ومع ذلك وجد فيها ما يقرب من خمسين لغة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال . وعلل هذا بأن المنطقة غنية بالاشجار والخيرات والطبيعة فيها رحيمة ، ويمكن ان يعيش فيها اطفال صغار وحدهم ، وان يتناسلوا ، وتتكون منهم قبائل لها لغة ، وهو يتصور : ان الناس منذ قرنين او ثلاثة ، كانوا يعيشون على الصيد ، ولم يكونوا بحاجة الى تكوين مجتمع انساني كبير يرحمون حدوده ، او يقبعون داخل بناياته ، فكانت هذه الاسر ، كما تصور صاحب هذا الراي ، تخرج للصيد ، ثم تخيل كارثة حلت بهذه الاسر ، فمات كبارها ، وبقي الاطفال وراءهم ، يتناسلون ، وتكونت منهم قبيلة ، وكانت لهم لغة مستقلة .

ومثل هذا حدث في جهات متعددة ، وبيئات مختلفة كاستراليا وشبه الجزيرة العربية . فالطبيعة هناك قاسية، والماء قليل ، ومع هذا فقد وجدت مائة لهجة متصلة ببعضها بفضل التعاون الوثيق ، والارتباطات الاكيدة بين الاسر والجماعات والقبائل ، وان كانت قد وقعت امثلة مشاهدة في بعض جهات متفرقة من العالم : ففي جزيرة كولا ، قالوا ان هناك فتاة كان لها أخ توأم يعيش معها بعيدا عن الناس، كونا لهما لغة لا يعرفها غيرهما حتى ابويهما اللذين خشيا عاقبة هذا الامر ، ففرقا بينهما على مضض ، وان نظر الى المصلحة العامة لهذين التوامين ، ولكن موت الاخ التوأم ، جعل الفتاة تصر على التكلم باللغة التي تعرفها ، واتخذتها لنفسها ، وحاول الاب جاهدا من الرجوع بالفتاة الى لغته هو ولغة قومه ، فلم يفلح ، فاضطر الى تعلم لغة ابنته حتى يجري الحديث بينهما على فهم وادراك .

وعندما سمع علماء اللغة بهذه القصة الخطيرة ، رحلوا اليها لدراسة لغتها ، وتعرف كنه هذه اللهجة التي اختارتها الفتاة ، واستطاعوا ان يحصلوا على عدة نماذج من هذه اللغة ، وانتهى بهم الامر الى ان هذه الكلمات التي تنطق بها الفتاه ، لا تعدو ان تكون لغة البيئة التي تعيش فيها ، غير انها منسوخة او مبتورة ، لكنها هي بعينها كلام البيئة والكبار ! !

وفي قصة اخرى ، يؤكد لنا صاحبها ، وهو عالم دانمركي كتب كثيرا باللغة الانجليزية ، قال : انه لفت نظره توامين اهملتهما أمهما التي كانت تخرج الى عملها طول النهار ، وتترك اي نوع من الطعام لهما ، وحينما تعود الى البيت ، كانت تنام من كثرة التعب . وفي وقت مرضت الام فتركتهما مع عمة لهما ، وكانت صماء ، فقيل ان الطفلين تكلما لغة لم تفهمها ، على انهما عندما ادخلا المدرسة، تكلما بلغة المدرسة التي دخلاها ! !

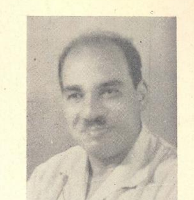
ويؤكد هذا العالم : ان هذين الطفلين ، لو تركا وحدهما، لاخترعا الفاظا لا تمت الى اللغة بأية صلة .

ومن الدلائل الواضحة على الارتجال ، قصة حي بن يقظان الذي يبرهن فيها على ان الانسان ، يستطيع ان يصل بتفكيره الى ربه ، وان يكون لنفسه لغة ، وهو تصور ان طفلا ولد في جزيرة ، وتربى مع غزالة ، الا انها ماتت ، فاخذ يفكر وحده في : كيف ماتت : ولماذا ؟ وفي كل شيء حتى وصل بتفكيره الى خالقه ! !

ولكن على الرغم من ان اللغويين ، يشعرون في قرارة نفوسهم ، ان الارتجال ممكن ، وانه وقع فعلا ، الا ان احدا منهم لم يستطع ان يبرهن على وقوعه فعلا ، ولم يجرؤ على ان يدلنا على الفاظ معينة في اي لغة يمكن ان نصفها بانها مرتجلة .

اقول هذا ، وانا اعد الارتجال مسئولا عن عدد قليل جدا من الكلمات في كل لغة ، وانه لقلة هذه الكلمات ، او ندرتها ، لا يصح ان نعد الارتجال طريقة من طرق التنمية اللغوية ، او عاملا من عوامل الثراء التي تبحث عن اللغة ، او قامت على اساسه ــ ان صح ــ المتين .

القاهرة — ابو طالب زيان



انور الجندي

كاتبتان وهميتان

بقلم انور الجندي

* * *

في مراجعات واسعة عن « ادب المرأة العربية » موضوع كتاب اعده يصدر في القريب يتكشف امرين واضحين في ادب المراة :

١ ــ ان اغلب ما نشرته المجلات النسوية كان باقلام كتاب رجال وان عددا كبيرا مما نسب الى الكاتبات لم يكتبنه حقيقة وانما كتبه لهن ازواجهن او اصدقاؤهن . وقد بلغ هذا الامر قمته هذه الايام حتى ان هناك اسماء لامعة فعلا ليس لها مما نسب اليها الا الاسم فقط .

٢ ــ ان هناك اسماء وهمية صدرت باسمها كتب ومقالات . ونشرت لها فصول . ربما كانت السياسة وربما التحايل على ابلاغ الراي عــن طريق صحافة لا تصادر ، وربما ظروف غامضة مجهولة . وربما كان بعض الشبان يرون الكتابة باسم الانثى وسيلة للنشر تدفع المحرر ان يشجع الكاتبة . ومن ذلك ما كتبه محمد التابعي بامضاء « حكمت ف » في الاعداد الاولى من مجلة روز اليوسف عام ١٩٢٤ وما كتبه نظمي لوقا بامضاء «حكمت كامل» في الاهرام عام ١٩٤٠ ومن بعد باسم صوفي عبد الله وما كتبه الدكتور عبد الحميد يونس في بعض المجلات ابان الشباب .

اما ابرز حادثين فهما صدور مجلة مرآة الحسناء عام ١٨٩٦ باسم مريم مزهر وهي شخصية وهميــة ابتكرها الصحفي اللامع خصم الدولة العثمانية اذ ذاك سليم سركيس.

وصدر كتابين هما « روح الاعتدال » و «غاية الانسان» بقلم كاتبة تدعى « وسيلة محمد » وكاتبهما الحقيقي هو « حافظ نجيب » المحتال الشهير .

وهذه قصــة الكاتبتــان الوهميتــان « مريم مزهر » و « وسيلة محمد » :

مريــم مزهــر

ابتدع « سليم سركيس » الصحفي اللبناني المهاجر الى مصر هذا الاسم « مريم مزهر » كصاحبة لمجلة اصدرها بالقاهرة (اول نوفمبر ١٨٩٦) باسم « مرآة الحسناء » انخدع فيها كثير من مؤرخي الصحافة واعتبرها مجلــة نسائية وضمها الى ثبت المجلات التــي اصدرتها المــرأة العربية . غير ان سليم سركيس ازاح الستار عن هذا السر في عدد مارس ١٩٠٧ من مجلة « سركيس » واشار الى الدوافع التي حدت به الى هذا العمل على ما واجهه ازاءه من مشقة ، فقد كان سليم سركيس مــن خصوم السلطة العثمانية محاربا لها ، شأنه شأن الكثيرين في هذه الفترة من المطالبين بالحرية وانفصال العرب عن الامبراطورية وكان اغلب هذا الهجوم منصبا على السلطان عبد الحميد الذي حكم حوالي اربعين عاما . وكان سركيس من اشد هؤلاء الخصوم ولذلك حرمت صحفه من دخول الممالك العثمانية وكانت جريدته (المشير) التي يصدرها في القاهرة ممنوعة من دخول سوريا ولبنان وغيرها ، لذلك فقد اراد ان يحتال من اجل ابلاغ ارائه الى هذه المناطق فأصدر هذه المجلة التي لا يظن انها تمنع لان محررتها سيــدة لا صلــة لها بالسياسة : يقول «لو انني اصدرتها باسمي وصلت الى كل مكان على وجه الارض الا الممالك العثمانية لان الخطر كان مرافقا لاسمي يومئذ ، وكان الرجل اذا اشترك في جريدتي فكأنه قد حكم على نفسه بالحبس ثمانية عشر شهرا ولما كنت على ثقة من ذلك قلت ان الحرب خدعة فقررت اصدار مجلة نصف شهرية باسم (مرآة الحسناء) صاحبتها ورئيسة تحريرها الانسة مريم مزهر » .

وقال انه لم يكن يعرف لمريم مزهر مسمى حقيقي ، ولم تكن اول مرة استعملت اسمها ، ونشرت به ففــي سنة ١٨٨٥ لما كنت احرر جريدة لسان الحال وجــدت ان المكتوبجي يراقب الجرائد وقد ضيق عــلي فاخترت ان احرض الاديبات في بيروت على الكتابة باسمائهن وقد كتبت مقالات نسائية في لسان الحال جعلــت توقيعها « مريم مزهر » .

وقد احتاط لهذا الامر بعــد صدور مجلــة (مرآة الحسناء) حتى لا ينكشف امره فكان اذا سأل القراء عنها من دمشق قال انها من القاهرة وان كانوا من بيروت قال انها من حلب .

وقد جعل كل المراسلات والتحاويل بــاسم الجريدة فقط . واشترط هذا الشرط حتى يتمكن من قبض تحاويل الاشتراك فلما ارسل القراء التحاويل الى « مريم مزهر »

اخذها الى الخزينة لصرفها فرفض المختص ، وقال له انه لا يصرفها الا الى الانسة مريم مزهر بذاتها ، فعمد الى الحيلة وكتب تفويضا بامضائها الى مصلحة البريد يعتمد فيه المدعو « سليم سركيس » لقبض التحاويل . وقد فوجيء ذات يوم بالمقتطف يكشف السر فقد كتب « تلقينا العدد الاول من مرآة الحسناء التي يحررها ويديرها سليم سركيس . . » فاسرع يكتب في العدد التالي « اني بصفة كوني رئيسة تحرير مرآة الحسناء قد نشرت تقريظ المقتطف ولكني عاتبة على حضرات اصحابه لانهم يغضون الطرف عن احدى الكاتبات ولا يذكرها المقتطف ولو بالاشارة . فحضرة سركيس افندي على ما عملت منه لا يدعى لنفسه كل ما ينسبه اليه المقتطف بل هو مدير اشغال الجريدة وشريكي ايضا في تحريرها وليس محررها المطلق كما يعلم القراء من وجود اسمي في صدرها بصفة رئيس تحريرها « مريم مزهر » .

وقد نشر سركيس محادثات عديدة بلسان الانسة مريم مزهر ، مع نازلي فاضل ومع الدكتور شميل وشوقي بك ومترجم الالياذة . ومن المفاجئات ان جاءه خطاب من شاب ظن ان مريم مزهر احدى قريباته من (ليماسول — قبرص) يعدها فيه بانه سيصل الى مصر ليستفيد من تعرفه من الادباء لتسعى لايجاد عمل له . يقول سركيس « كنت واثقا من عدم وجود سيدة بهذا الاسم ولكن هذا الكتاب ازال ما كنت اتوهمه ، وهدم المشروع » فربما جاءت مريم مزهر الحقيقية الى مصر وادعت انها صاحبة المجلة ولها الحق في اتعابها كما وصلته خطابات من شاب في البرازيل عشق مريم مزهر بالسماع ومن تلميحاته بعرض عليها الزواج ومما قاله :

« لا اعلم اي باعث قد بعث بي على التوسم والظن بانك تحوين مبلغا عظيما من الحلاوة واللطف السيال . . وانني لا ابغي سوى مداعبة هذا اليراع . . الخ »

واشار سركيس الى ان المجلة ظلت سائرة في طريق النجاح وكان لها منزلة هامة عند السيدات لانه افرد بها بابا لوصف حفلات الزواج والمراقص ، فكان يصف ملابسهن وازياءهن وصفا تقصر عنه « ابرع الخاطبات » على حد تعبيره . ويحاول سركيس ان يعلن بأن هناك عددا اخر من الاسماء التي توسم بها مجلات نسائية او مقالات نسائية وهميا فيقول : « . . ربما جاء زمن يذيع فيه غيري سر اسماء كاتبات كثيرات يظن الناس اليوم انهن موجودات حقيقة ، واذا كان لهن حقيقة وجود فهناك سر ذلك ان الاسم اسم امرأة والعمل عمل رجل . . »

وقد صدق فكم من الاعمال الادبية التي نراها حتى اليوم باسماء كاتبات هي من عمل رجال . بل ان هناك اسماء لامعة جدا ليس لها مما ينشر باسمها شيء سوى الاسم وفي بعض دور الصحف محررات يفزعهن ان يكلفن بعمل سريع ويطلبن دائما تقديم العمل المطلوب في اليوم التالي اي بعد العودة الى صاحب الدجاجة التي تبيض الذهب . .

وسيلة محمد

اما الكاتبة وسيلة محمد التي صدر باسمها كتابان هما « روح الاعتدال » و « غاية الانسان » اللذان اصدرتهما دار المعارف بالقاهرة . وقد حاولت ان اصل الى احدهما فوفقت الى وجود كتاب « غاية الانسان » في دار الكتب المصرية مكتوب عليه « وضعه الفيلسوف جان فينوت . ترجمه حضرة الكاتبة الفاضلة السيدة وسيلة محمد مترجمة كتاب روح الاعتدال » .

وقد أهدته (الى ابنتي العزيزة : الدهر عبر والحياة سير ، والنفس بينهما لا تستقر فمن نتقي الايام تأمن غيرها ، ومن تعرف الحياة تجمل سيرها والحوادث جائية ذاهبة والاعمار فانية ناضبة ، فالحال لا تدوم اسعدت ام اشقت ، والذكرى لا تفنى ، قبحت ام حسنت ، فاتقي بنيتي العاقبة الاخرى فانما الحياة هي الذكرى : والدتك)

وقد كشفت مجلة المفتاح في عدد ١٥ ديسمبر ١٩١٢ عن ان شخصية وسيلة محمد غير حقيقية وان كاتب هذه المؤلفات هو « حافظ نجيب » المحتال المشهور في فترة من فترات اختفائه كوسيلة من وسائل العيش على حد تعبير صاحب مجلة المفتاح او طلب الارتزاق من هذه المهنة الادبية الشريفة (مهنة الكتابة والتحرير) بعد ان امضى زمنا طويلا في ارتكاب اكبر انواع النصب والاحتيال . وقال ان (وسيلة محمد) هي زوجة حافظ نجيب نفسه ، وانه تعرف بها في فترة زهدت نفسه ارتكاب المنكرات وعدل الى الانزواء في مكان لا يشعر به احد فتزيا في زي المشايخ من اهل الفضيلة والتقوى ، واطلق على نفسه اسم « الشيخ عبد الله » من اعيان المتوفية واتخذ له سكنا في احد احياء مصر القديمة ، وكان يختلف اليه جماعة من الذين ادهشهم بفصاحته وخلب البابهم بدهائه ، يتلقون منه دروس الادب والفضيلة . . وكان ان اصيب في هذه الفترة بمرض الزمه الفراش ، وكانت « وسيلة محمد » تسكن بمنزل قريبا منه وهي من عائلة طيبة وكانت ارملة لأحد اعيان المصريين ، فاشفقت عليه لما راته وحيدا غريبا ، فاعتنت بأمره وكانت تسهر عليه حتى شفي . . وتوثق بينهما عرى الحب والود ، فتزوجها ورزق منها ابنة اسماها عزيزة لعلها التي اهداها كتابه غاية الانسان وكان — وانا انقل عبارة محرر مجلة المفتاح — كثير الهم والاكتئاب ، فكانت تسأله « وسيلة » عن سبب اكتئابه واشتغال فكره ، فكان يجيبها ان في تاريخ حياته سرا لا يريد ان يبوح به» .

وروى المرحوم نجيب متري صاحب مكتبة ومطبعة المعارف لمحرر المفتاح صلته بكتب وسيلة محمد فقال : اني بينما كنت جالسا في مكتبي ذات يوم ، حضر الي شخص يحمل كتابا برسمي ، وهو شيخ كبير السن احنت السنون ظهره وخط الشيب شعره ، ولما فضضته علمت انه من

سيدة تدعى (وسيلة محمد) تخبرني فيه بانها عربت كتابا نفيسا من احسن المؤلفات العصرية الجديدة هو (روح الاعتدال) وانها علمت انني اقوم بطبع مثل هذه الكتب على نفقة المكتبة فهي تريد ان تعرضه علي للاطلاع عليه ، فلم اشك في الامر لحظة ، وطلبت الى الرسول ان يمهلني حتى اطلع على الكتاب وبعد مدة اخبرته انني وقفت على محتويات الكتاب وعزمت على طبعه ، واني اريد مقابلة صاحبته شخصيا لكتابة الشروط فأخبرني انها قد فوضت له كتابة الشروط بالطريقة التي استحسنها ثم اعرضها عليها لامضائها عن يد هذا الرسول .

وتم الاتفاق على طبع كتابها الاول والثاني وانا لا اعرف الا كونها احدى السيدات المصريات النابغات ، وان كان اختفاؤها مما اوجب عندي بعض الهواجس والظنون ولكني لم يخطر ببالي مطلقا ان (وسيلة محمد) هي زوجة (حافظ نجيب) وانه الواضع الحقيقي لهذه المؤلفات حتى اتضحت هذه الحقيقة في سياق التحقيق عند القبض عليه في المدة الاخيرة .

واضاف المرحوم نجيب متري يقول : وقد حاولت التعرف الى السيدة « وسيلة محمد » فلم استطع الى ذلك سبيلا حتى اني حررت اليها يوما كتابا (مسوكرا) بطريقة تضطرها الى الحضور لاستلامه من مكتب البريد بنفسها فردت علي في نفس اليوم دون ان اراها في مكتب البريد عند استلامها لكتابي .

ولما رايت ان اشتري حق طبع هذه الكتب وادفع ثمنها الى صاحبها يدا الى يد حضرت الي (وسيلة محمد) نفسها مدعية انها رسولة من قبلها حتى اظهر التحقيق ان حافظ نجيب هو صاحب المؤلفات الحقيقي . عندئذ قابلت (وسيلة محمد) التي اطلعتني على حقيقة امرها وانها زوجة حافظ نجيب وانه مؤلف هذه الكتب ... »

وعندي ان حافظ نجيب كان يعود الى نفسه في فترات الاختفاء محاولا ان يصرف نفسه عن الجريمة ، مقيما حياة جديدة ، محاولا الالتقاء مع المثل العليا والاخلاق في كتابات ادعى انها مترجمة من فلاسفة اوربيين لبينما هي من خلاصة قراءاته وتجاربه اراد ان يعطيها صورة عالمية بأن نسبها الى فلاسفة اوربيين واراد ان ينشرها فنسبها الى كاتبة مصرية في فترة كان ذلك من الاعاجيب اذ لم يكن هناك الا واحدة او اثنتان من الكاتبات في هذه الفترة الباكرة عام ١٩١٢ مثل ملك حفني ناصف ولبيبة هاشم وزينب فواز .

وبعد : فهذه ظاهرة نسجلها عن فجر الادب العربي المعاصر ، ولا شك انها استمرت من بعد واتسع نطاقها ويوجد منها اليوم في عالمنا العربي كثيرات حتى انه يمكن النظر بعين الشك الى كثير من الانتاج النسوي او على الاقل بشيء من التحرز .

القاهرة — **انور الجندي**

عيد الكويت

ابهجت يا عيد الكويت جوانحي ... فاتتك تزهو بالقريض مدائحي
يا موطن الامجاد اي مصاعب ... مرت عليك فكنت خير منافح
لا خنجر الايام نال مناله ... من صفحتيك ولا سلاح القادح
يا موطن الامجاد هات مجددا ... عهد البحار مع الغناء الصادح
فلقد نسينا والحوادث جمة ... قصص البحار بعطرها المتفاوح
ولقد طربنا للحديث وشاقنا ... صوت من الماضي القريب الجامح
كانت باعماق البحار موارد ... للعيش فانتزعت بهمة كادح
والشعب في الامجاد كان جميعه ... ما بين غواص وآخر سابح
هذا يغوص مغامرا بحياته ... من اجل عيش بالمتاعب طافح
والاخر الطماح يضرب شامخا ... بمجاهل وسط البحار شحائح
يا دولة رفعت بنيها للعلى ... هذي يميني قد مددت فصافحي
فانا فتاك المستقيم على الولا ... وعلى المحبة قد طويت جوانحي
وانا على العهد المقدس ثابت ... شهدت بذلك اضلعي وجوارحي
يا موطن الامجاد دمت معززا ... ومزودا بمكاسب ومرابح
وبقيت مرجوا لكل جليلة ... وظللت معطاء واكرم نافح
وسلمت ذخرا للعروبة انها ... تدعوك ـ صدقا ـ بالامين الناصح

تونس — **فاضل خلف**

شاهين ابن ضيعتنا

بقلم ميشيل سليم يمين

قال صديقي الصحفي :

شاءت الغبطة في وجهي ، عندما انتدبتني الصحيفة التي احرر فيها ، للسفر الى لبنان في مهمة صحفية ، وكنت قد زرته من قبل مرات ومرات، تركت لي فيه اصدقاء اوفياء ، غير انني في هذه المرة ، قد اغتنمت فرصة وجودي فيه ، لاتحف قرائي بحكاية من لبنان ، وما اكثر الحكايات عن لبنان ، ان لبنان نفسه حكاية شائقة، قد خطت سطورها يد الطبيعة على هذه البقعة الجميلة من الارض ، فكان لبنان .

وبعد ان اتممت مهمتي الصحفية ووافيت صحيفتي بالتحقيق الصحفي عن الانقلاب الفاشل في لبنان ، رجعت الى مفكرتي التي اصطحبها معي في روحاتي وغدواتي البعيدة ، ويرجع تاريخها الى أول عهدي بالاشتغال في بلاط صاحبة الجلالة ، فاخذت اقلب صفحاتها ، واقرأ ما فيها من عناوين ومذكرات ، الى ان سقط نظري على عنوان لم يكن يدور في خلدي في يوم من الايام ، ان اعيره اي اهتمام ، انه عنوان صديق لي ، كان استاذي في المدرسة المارونية بالقاهرة ، التي تلقيت فيها علومي الثانوية ، قبل التحاقي بالجامعة ، وكان هذا الصديق الذي تقدمت به السن اليوم ، قد ترك مصر من زمن غير بعيد ، واستقر في لبنان نهائيا ، موطن السحر ومرتع الجمال ، حيث يقضي بقية عمره ، فرحت اسائل نفسي ، هل القى هذا الصديق يا ترى ؟ وهل اذا لقيته سيفرح بلقائي بعد طول الغياب ؟ وبقيت هكذا بين اخذ ورد مع نفسي ، الى أن استبد بي الشوق الى زيارته في ضيعته الرابضة فوق صدر الجبل .

واكتريت سيارة ، ورجوت من سائقها ان يسير في هوادة وبطء، كي تتاح لي اكبر فرصة للتمتع بالمناظر الطبيعية الفاتنة ونحن نصعد في الجبال ، فابتسم السائق واجاب بلهجته اللبنانية الظريفة :

— تكرم سيدي انا محسوبك .

وسارت بنا السيارة في طريقها المرسوم ، وهي تطوي سهول انطلياس الفيحاء ، وحدائقها الغناء ، حتى اجتزنا نهر الكلب والاثار المنقوشة على صخوره ، ولما بلغنا مشارف جونيه اخذت السيارة تصعد في طريق جبلي ممهد مفروش بالاسفلت، على جانبيه بعض الاشجار ، الى ان وصلنا الى الضيعة التي يقيم فيها استاذي وصديقي الاب يوسف ، فسألت عنه ، فقيل لي انه يقيم اليوم في دير في شمال لبنان ، فغلبني الحزن ، وابتسمت ابتسامة السخرية وخيبة الامل وقلت في نفسي يا للقدر ... ! ! ! وبعد ان فكرت قليلا التفتت الى السائق وقلت له ما رايك؟

اجاب السائق : تكرم سيدي انا محسوبك .

فقلت له : الى شمال لبنان .

وكان الوقت قبيل الظهر ، فعادت السيارة تقطع بنا طرقات معبدة ، شقت بعضها وسط الجبال، والبعض الاخر على حواشيها ، وبعد ان اجتزنا عدة قرى وضياع ، متناثرة هنا وهناك ، وصلنا الى الدير الذي يقيم فيه استاذي وصديقي قبيل الغروب، ويقع في مكان خلوي فوق رابية مرتفعة تحيط به اشجار الصنوبر والسنديان ، وقفت السيارة في ساحته الرحبة فنزلت منها ، واذ بي



ارى شخصا ، وقد نبهه ازيز محرك السيارة ، يطل من شباك حجرة متواضعة ، فما ان لمحني ، حتى هرول مسرعا الى الساحة ، فعرفني في الحال ، وفتح ذراعيه ، وضمني اليه بشوق ، وهو يقول ، ودمع الفرح يترقرق في عينيه :

— ما اجمل هذه المفاجاة ... كم انا سعيد بلقائك في لبنان ... ثم اخذني بيدي واجتزنا بابا خشبيا بدائي الصنعة الى داخل الدير، حيث جلسنا في حجرة الاستراحة نتحدث معا ، احاديث كانت كلها تدور حول ذكرياته عن مصر ، وعن المدرسة ، وبعدما لقيت من استاذي كل ضروب الحفاوة والاكرام ، وقفت استاذن بالانصراف، وكانت الساعة قد اشرفت على الخامسة ، فالتفت استاذي الي وقال :

— الى أين ؟

قلت : اريد العودة الى بيروت للسفر غدا الى القاهرة ان شاء الله .

قال : امكث في ضيافتنا عدة ايام .

قلت : ان وقتي لا يسمح لي ، والحمد لله الذي رايتك بخير .

فقال : ان لاستاذك حقا عليك .

فقلت : انت تأمر وانا اطيع ولكن السائق ...

فابتسم الاب يوسف ابتسامة الظفر وقال :

— اطمأن يا عزيزي ، فقد دفعنا له اجره وصرفناه من نصف ساعة من الزمان .

فاحنيت راسي خجلا ازاء هذا الكرم الحاتمي ، ورضيت بالامر الواقع وقد حضر في مساء ذلك اليوم راهبان في مقتبل العمر تناولا معنا طعام العشاء في جو كله هدوء وصفاء وسكون ، لم نكن نسمع فيه سوى حفيف الاشجار التي تدغدغ اغصانها همسات النسيم العليل والقمر يزحف فوقها بنوره الفضي الجميل ، وبينما نحن نتحدث في مواضيع اجتماعية ، رغبت في ان انتزع من فم استاذي الذي يحمل

اليوم على منكبيه عددا من السنين قد جاوز الثمانين ، حديثا قد ينفع ان يكون قصة اتحف بها قرائي ، فأخذت استدرجه في الكلام بلباقة الصحفي ومهارته ، الى ان علمت انه قبل مجيئه الى مصر كان قد قضى شطرا من حياته في الارجنتين حيث يكثر عدد اللبنانيين فقلت له :

ـ هل لك يا ابت الجليل ان تحدثني عن اغرب شيء صادفك في حياتك الكهنوتية الطويلة ؟

سكت الاب يوسف برهة واطرق بوجهه نحو الارض، كمن يبحث في ذكرياته عن شيء قديم يريد ان يتحفني به فقال :

ـ كنت اقيم في بونس ايرس عاصمة الارجنتين في امريكا الجنوبية، وذلك عندما شاهدت ذات صيف هذا الحادث العجيب ، الذي يثير الاشفاق والاسى معا ، ففي امسية ذلك اليوم ، احتشد القوم في كنيسة العذراء ، عليها السلام ، وغص فناؤها على رحبه بالمدعوين ، وكانوا كلهم من وجهاء العرب المغتربين ، مسلمين ومسيحيين ، وراحوا ينتظرون العروس ، وفجأة ظهر ركبها امام باب الكنيسة ، فتطاولت الاعناق ، واشرابت الرؤوس بدافع الفضول لرؤية العروس ، وهي ترفل في ثوب العرس الابيض وقد بدت فيه كالطيف في ضوء الفسق تتهادى في مشيتها فوق الطنافس الحمر ، الممتدة من الباب حتى الهيكل متأبطة ذراع والدها الشيخ .

ولما اقترب ركب العروس من الباب الداخلي ، يحيط بها وصيفات الشرف ، وكان عددهن اثنتي عشرة فتاة ، احاطة الهالة بالقمر ، تقدم العريس بخطوات ثقيلة واخذ ذراع عروسه ، فمشت معه بقدها الممشوق، وقوامها المياس ، يحجب وجهها عن عيون الناس ، نقاب من الحرير الشفاف ، تبرق من تحته عيناها النجلاوان ، حتى الهيكل الكبير ، وكان قد زين بالورود والزهور الطبيعية العطرة والرياحين الخضراء النضرة واضيئت الانوار الكهربائية الساطعة، فبددت بنورها الساطع جحافل الظلام وكان تألق انوار الشموع وهي ترتجف وسط الثريات المتلألئة ، يزيد المكان رهبة وخشوعا ، فتجلت الروعة في الكنيسة بأجلى مظاهرها .

وكان ثغر العروس لا ينفرج عن ابتسامة ، وقد لاحظت عليها ذلك عندما بدأ الاب انطونيو بتلاوة صلاة الاكليل على نغمات الارغن ، واصوات جوقة المرتلين ، وقبيل الانتهاء من مراسيم الزواج ، ساد المكان صمت عميق ، فوجه الاب انطونيو الى العريس السؤال المألوف :

ـ هل تريد يا رودلفو هيفاء زوجة لك ؟

فأجاب رودلفو بصوت جهوري كله شدة وكله حماس : نعم اريد .

ثم التفت الكاهن الى هيفاء ووجه اليها نفس السؤال قائلا :

ـ وانت يا هيفاء هل تريدين رودلفو زوجا لك ؟

وهنا حدث ما لم يخطر لي على بال ، اذ ما كادت هيفاء تفتح فمها لتجيب على هذا السؤال حتى سقطت مغشيا عليها ، وهي تتمتم بكلمات ، سمعت منها لفظة لا .... فساد المكان لحظة ، سكوت القبور ، اعقبه اضطراب ، فأحاط الناس بالعروس ، فرأوا رودلفو العريس منحن فوقها وهو يحاول ان يرفعها بيديه الهزيلتين، ولكنه لم يستطع ، غير ان شابا وسيم الطلعة ، مفتول الساعدين ، انبرى من وسط الحاضرين ، واقترب من العروس وانحنى فوقها بخشوع وحملها برفق بين ذراعيه ، ساندا رأسها على صدره ، وسار بها بخفة ورشاقة وسط الجماهير ، وهو يحدق النظر بعينيها المقفلتين المتعبتين وبوجهها المربد المكدود ، حابسا انفاسه في صدره كي ينصت الى انفاسها المتقطعة ، ويحس بصدرها وهو يعلو ويهبط فيطمئن الى ان الحياة ما زالت تدب فيها ، وكانت الجماهير قد اندفعت وراءه لتشاهد الفصل الاخير من هذه المأساة المؤلمة المريرة .

ولما وصل الشاب الى ردهة الاستقبال ، اقترب من اريكة ، وبينما هو يهم بوضع هيفاء فوقها ، لامست شفتاه بدون قصد شفتيها ، فكان هذه الملامسة البريئة قد بعثت الدفء في صدرها ، الذي ما زال ينبض بالحياة ، فتحركت ، وفتحت عينيها، ثم اغمضتهما .

وكان بين المدعوين الدكتور فارس صديق الاسرة ، فنظر الى هيفاء فرآها شاحبة اللون، مسبلة العينين، فأخذ يدها ، فاذا هي باردة برودة الموت ، واذا نبضها يدق دقات خفيفة متقطعة ، فعالجها بفنه وعلمه الى ان تنبهت ، وفتحت عينيها ، فرأت بجوارها والديها وبعض المدعوين ، كما لمحت الشاب الذي حملها واقفا بجوار الباب بعيدا ، فاجهشت بالبكاء ، اما العريس الذي اذهلته هذه الصدمة القاسية المؤلمة ، والتي لم يشفع له فيها غناه وجاهه ، فتوارى عن الابصار من فرط ما استولى عليه من الخجل فقد كان جرحه في قلبه عميقا ومريرا.

وسكت الاب يوسف برهة ثم اردف ما تقدم قائلا :

ـ وعندما افاقت هيفاء واستعادت وعيها ، انفردت بها ، واخذت الاطفها، واتبسط في الحديث معها ، لاجلو حقيقة امرها ، فقلت لها في سياق الحديث :

ـ ماذا جرى يا ابنتي كي تفعلي بنا هكذا ؟

فأجابت بكل بساطة وبكل هدوء :

ـ ماذا فعلت يا ابت ؟ اني لم افعل غير مشيئة الحياة ، التي ارادت لي غير ما اراده لي اهلي .

فقلت لها :

ـ لماذا لم تقولي من قبل انك لا تريدين رودلفو زوجا لك؟كان الاحرى بك ان تكوني حكيمة في تصرفاتك لبقة في كلامك .

لمعت عينا هيفاء بنور الامل ، وارتسمت على محياها الذي عاد وتخضب بحمرة الهوى والشباب ،

أنشودة المغترب

كان للشاعر ان ذاق مرار الاغتراب فكتب هذه الابيات ..

يا نفس لا تبكي ولا تحزني   غدا تعودين الى موطني
ضاقت بك الدنيا على رحبها   وانت في تجوالك المزمن
وكنت بين الاهل في غربة   فما عساها غربة الالسن ؟
عودي الى «حمص» و «ميماسها»   الى الربى الخضراء والسوسن
الى انطلاق الروح من عالم   مقيد بسجنه المنتن
يدب تحت الارض من مدفن   ضجئت به اللقيا الى مدفن
يا نفس حسبي ضمّة" من شعاع الشمس ترعاها رؤى أعيني
يزفها الفجر الى كرمنا   فيسكر العنقود في موطني

غدا تعودين ؟ فيا فرحة الشاعر بالناي والارغن
غدا ... وتلقاك « سعاد » لقاء القلب لم يفتر ولم يسكن ؟ !
وتسمعين صوت اطفالك الزغب يصيحون باحن هني ؟
غدا ؟ فيا شوق اعرني جناحا علني احظى بهم .. علني

حمص   عبدو مسوح

وحدجتني بنظرة من نظراتها التي تفيض بالحزن والاسى وقالت :

— ارجو المعذرة يا ابت ، انك انت اول من وجه الي مثل هذا السؤال ، ثم انه عندما يتحطم القلب يفقد الحكمة وتضيع اللباقة ، ثم اشارت بيدها الى الباب واردفت ما تقدم :

— انظر يا ابت الى الشاب الواقف بجوار الباب ، انه ابن ضيعتنا ، التي لها تقاليدها وعاداتها ، وانه مغترب مثلنا ، وقد وهبته اشواق قلبي ونحن صغار السن ، نلهو على درب العين ، وننظر الى مائها المنساب في قناة ، كنا نغمس فيها اقدامنا ، ونتراشق ماءها قبل ان نملأ جرارنا.

وكان هذا الشاب يرافقني في ايام الصيف الى كرمنا المجاور لكرمهم تحت السناد ، وكان اثناء الطريق يتسلق شجر الزعرور التي فوق الدرب ، ويقطف ثمارها ، ويرمي لي بها في فستاني الذي كنت افتحه له.

وعند عودتنا من الكرم كان يعاونني على حمل سلة العنب والتين ، وهو يغني الميجانا والعتابا ، اني عندما اذكر تلك يا ابت اتحرق شوقا الى لبنان ، والى ايامه الحلوة ولياليه الجميلة ، وعيشه الهني السهل ، ان الامل في العودة الى لبنان مع ابن ضيعتنا التي تربينا فيها صغارا كبير ، وكبير جدا ، اما الامل في العودة اليه مع ذلك الغريب فضئيل وضئيل جدا .

كان دمع التأثر والانفعال يترقرق في عيني استاذي وهو يقص علي قصة هيفاء ثم قال :

— والتفتت الى الباب فرأيت كما قالت هيفاء ، شابا ، خجولا ، منكمشا في مكانه ، وعلى وجهه مسحة من الحزن والالم المرير ، كان يبدو عليه انه يدفن في صدره ، سرا من اسرار هذه الحياة الغامضة ، لا تستطيع ان تكشف عنه الا روح، مثل روح هيفاء الشفافة ، التي تراه بنور قلبها ، لا بنور عينيها ، وتناجيه بحنانها لا بلسانها ثم التفتت الى والدي هيفاء وقلت لهما :

— ان ابنتكما على حق حين احبت ابن ضيعتها ، ووهبته اشواق قلبها ، فقد احبت فيه طهر لبنان ، وجمال الطبيعة في لبنان ، قد احبت فيه البسمات التي رسمتها يد الطبيعة على سفوح تلك الربى والاكام ، كما احبت فيه النظرات التي كحلت بها همسات النسيم ، الوهاد والوديان .

وغمرت هيفاء موجة من الفرح عند سماعها هذا الكلام وابتسمت في وجه شاهين ابن ضيعتها وقالت له :

— ان الخير يحني دائما راسه امام عاصفة الشر ، لينتصب في النهاية منتصرا .

القاهرة   ميشيل سليم يمين



ازهار

رواية تأليف احمد حسين المحامي – ٦٠٠ صفحة – مطبعة مصر بالقاهرة

« ازهار » رواية ضخمة من تأليف الاستاذ احمد حسين المحامي صدرت في القاهرة منذ ايام وهي اول رواية ، بهذا الطول ، اعيش معها فترة طويلة بوجداني وتفكيري ومشاعري ، وتنتزعني – رغم مشاغلي العديدة – من دنيا الناس الى دنياها الكاملة الحافلة فاخلو الى ابطالها اعيش معهم واعاشرهم ، واصادقهم واحبهم جميعا على الرغم من تنافر ميولهم وتغاير مشاربهم ونزعاتهم ، واغوص مع المؤلف الى داخل النفس الانسانية القلقة الجامحة المتمردة ، واشهد تصارع النزوات والشهوات ، وارى الطموح العارم نحو حياة جديدة ، والذين ينشدون في الروايات المتعة الفنية واللذة سيجدون في هذه الرواية غايتهم ، ففيها البناء الفني المحكم ، والتصوير الدقيق لخوالج النفس الانسانية ، ورسم الشخصيات في براعة ، كل ذلك في اسلوب ناصع يضيء بالبساطة والعذوبة .

والذين يلتمسون العلاقات العاطفية العارمة ، سيجدون فيها «ازهار» بكل ما في حياتها من خطيئة ، وحرمان ، وحب ومجد وتضحية .

وسيجد فيها طلاب الحب العذري المحروم حب فوزي لآمال ، وما يحيط به من مشكلات اما هؤلاء الذين يتشوقون في الرواية تصوير المجتمع وما فيه فسينعمون بما فيها من تصوير للعادات والتقاليد ، ووصف لقصور الملوك ، واندية الاحزاب السياسية ، ودور اللهو ، ودور العلم ، والمشارب والمعابد ، والطبيعة في الريف والمدينة ، والمظاهرات السياسية والزعماء في العهود الغابرة ....

في الرواية كل هذا ، وفيها الى جانبه شيء آخر لم ادركه بعقلي ، ولكنني احسسته بقلبي ومشاعري ، شيء يضيء وراء السطور فيضفي عليها الانفعال الحار ، والرشاقة والعمق هذا الشيء هو جوهر الفن ، الذي يمنح الخصوبة والعذوبة والجمال ، وهو الذي يميز كاتبا عن كاتب ، ويفرق بين كتاب وكتاب .

وانا لا اريد الان ان اكتب عن شيء من هذا ولكني اريد ان اجلي فكرة تكونت لي بعد ان قرات هذه الرواية ، فكرة تحيط اطار الرواية كلها وراء شخصياتها واصواتها ، ولكنها مع ذلك تظهر بوضوح بعد قراءة الرواية ، هذه الفكرة هي « التمزق والتطلع » ... تمزق العادات والتقاليد القديمة ، والتطلع الى اهتمامات جديدة ، وقيم جديدة ... تمزق الحياة السياسية القديمة والتطلع الى حياة جديدة ولكي نشرح هذه القضية ونفسر الرواية على ضوئها لا بد من تلخيصها او اعطاء فكرة واضحة عنها ... وهذا امر شاق عسير ، والا فكيف اضع البحر الممتد العميق في قارورة صغيرة ، وعلى اية حال لا بد من الاشارة السريعة الى الشخصيات الهامة في الرواية والاحداث حتى ترى بعد ذلك قضية التمزق والتطلع .

وفي اعتقادي ان اهم شخصية في الرواية هي شخصية « فوزي السيد علي » ونحن نلتقي به وهو فتى في السابعة عشرة من عمره « نحيل الجسم متوسط القامة أسود الشعر ... مسرف في الحركات والاشارات والانفعالات ، يعبر عما في نفسه بصدق حار منفعل ، ووجهه مشرق جميل تعلوه ابتسامة عذبة تكشف عن سنة مكسورة ، وحاجباه عريضان يلتقيان في غير نظام محكم هذا الفتى يظل معنا طول الرواية ، نراه وهو يحب امال حبا عنيفا متوهجا ، ونراه وهو يسافر باريس ولندن ، ونشاهده وهو يحلم بمجد امته ونراه مع رفاقه في بيت البحر ينشدون الامال ويحلمون ... ثم نشهده مع هؤلاء الرفاق وهم يهزون قلب المجتمع العربي بمشروعهم الاقتصادي الكبير ، وحركتهم السياسية الجديدة .

والشخصية الثانية شخصية « آمال » وهي فتاة ممشوقة القوام وجهها ابيض مشرب بحمرة ترتدي قبعة عريضة فوق رأسها تعلمت في انجلترا وقضت خمس سنوات في بلاد الانجليز . هذه الفتاة تلعب دورا هاما في حياة فوزي ، وتخطب له ولكنها في النهاية تفسخ خطبتها وتتزوج من رجل عجوز كان زوجا لاختها الكبرى .

وهناك شخصية « فؤاد » وهو من رفاق فوزي ولكنه اتجه الى مدرسة الكونستبلات واصبح كونستبلا واحب (ازهار) ثم تركها ليتزوج ابنة الباشا الذي كان يحرسه وتسلق من خلاله الى قمة المناصب فاصبح « صاغ » بعد فترة قصيرة ولكن الاحداث اعتصرته واضطر في نهاية المطاف الى ان ينتحر في السجن .

اما الشخصية الخصبة الغريبة فهي شخصية « ازهار » وهي فتاة رقيقة الحال زلت قدمها في الصغر فاضطرت الى ان تسير في الطريق الشائك فباعت جسدها واحبت واشتغلت راقصة ووصلت الى قمة الشهرة ، ولكنها احبت فؤاد الحب كله وضحت في سبيله تضحيات كبيرة ووقفت الى جانبه عندما قتل زوجته وسجن وظلت الى جانبه حتى انتحر بعد ان برأته المحكمة .

الى جانب هذه الشخصيات حشد من الشخصيات المتنوعة ... ففيها شخصيات الحكام ورؤساء الاحزاب والطوائف والشباب ومنها شخصيات الفتيات البريئات المتطلعات الى الحياة المستقرة ، وتدور احداث الرواية في رقعة ممتدة من الزمان تناهز نصف قرن بكل عاداته وتقاليده وعلاقاته الاجتماعية ، وكنت الهث وانا اتابع المؤلف وهو يرسم هذه الاضواء ويصور تلك الشخصيات ، وينخلع قلبي وانا ارى هؤلاء الابطال نهبا للصراع الانساني العاتي ، ثم وانا اشهدهم وهم يستسلمون لمصائرهم في سكون واعود بعد هذه الاشارة العابرة الى القضية الهامة التي استخلصتها من هذه الرواية .

اعود الى قصة التمزق والتطلع هذه .... ما هي ؟ وهل كان يهدف المؤلف الى تصوير هذه الفكرة في روايته ؟

واغلب الظن ان المؤلف لم يتعمد تصوير شيء من هذا ، وانما انساق الى هذه الفكرة بالحاسة الفنية وحدها ، وهذه العفوية هي سحر جمال الفكرة واصالتها ونضارتها ، وهي سر هذا الوهج الذي تشيعه ، وسر تلك الرشاقة التي تجذب القارئ وتستهويه. «والتمزق والتطلع» في بساطة ، تمزق القيم القديمة ، وانهيارها ، والاحساس الجديد الذي ينشد قيما اخرى ، وحياة جديدة ، وهذا المعنى ليس جديدا على هذا النحو فكتب التاريخ رصدت هذه المظاهر كلها ، وبعض قصصنا العربية عكست جانبا من حياتنا السياسية والاجتماعية وصورتها في اسلوب موح جميل كما نجد في قصص محمود تيمور ونجيب محفوظ وعبد الحليم عبد الله ومحمود البدوي ويحيى حقي ويوسف السباعي ويوسف ادريس وغيرهم وغيرهم ...

ولكنني مع هذا اعتقد ان تجربة الاستاذ احمد حسين جديدة كل

الجدة في حقلنا القصصي ، فهي تختلف عن التاريخ في انها ليست سردا لهذه الاصوات كما نشاهد في قصص جورجي زيدان التاريخية ولكنها تجسيد فني بارع لهذه الاصوات والمشاهد ، وهي تدل على طاقة فنية كبيرة ، وحس درامي مرهف وانني ارجو ان يواصل المؤلف المسير في هذا الطريق الفني الجديد على حياته وكفاحه وهي مختلفة ايضا عن كل القصص العربية التي قرأتها ، لان هذه القصص كانت تتناول قطاعات من مجتمعنا وتصورها ، او كانت نظرات جزئية لتاريخنا واحداث حياتنا .

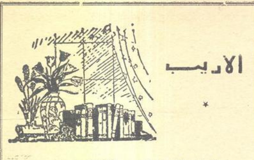
أما قصة « أزهار » فنظرة كلية الى تاريخنا واحداث الحياة العربية في فترة ممتدة من الزمان ، نظرة شاملة تعكس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتصور القيم الفكرية والاخلاقية ، وتحس فيها وقع اقدام التاريخ وهي تتحرك ، وتعيش في الشارع وفي رحاب الجامعة ، وفي اندية الليل ، وتمشي في المظاهرات السياسية ، وتشهد الانتخابات وهي تزور وحياة البوليس ، وزعماء الاحزاب السياسية ، وتقف على جانب كبير من صور الحياة التي كانت سائدة في بيوت الباشوات ، وقصر الملك ورجال الحاشية ، تشهد الظلام يخيم على كل شيء ، ويتربص بكل القيم الجديدة ، ولكنك لا تختنق لان المؤلف وهو يصور هذه الحياة المنهارة المتمزقة ، يفجر فيها الحياة الجديدة ، ففي خضم هذا الظلام الكثيف ومن خلال هذه الحياة الغاربة ، وعلى اطلالها الدارسة لا نسمع نعيب البوم والغربان ، ولكن نشهد ضوءا صغيرا لامعا يجثو على صدر هذا الليل ، ونرى فوزي السيد علي ورفاقه من الشباب يقفون في اصرار يتحدون كل الموانع والعقبات ويتطلعون الى فجر جديد، وحياة جديدة ، وقيم جديدة ... اذن في القصة خيوط بالية تتمزق وحياة منهارة تغرب ، وقيم متعفنة تنهار ، ولكن فيها ايضا خيوطا جديدة تتشكل وشبابا جديدا يتطلع ، فالقصة في يسر وبغير تفلسف تتلخص في هذه العبارة تمزق وتطلع ، ولا بد ان نعود الى القصة من جديد على ضوء هذه النظرة لنشهد باعيننا هذا التمزق والتطلع .

تبدأ القصة في محطة القاهرة ونسمع صفارات القطار وهو يتحرك الى الصعيد حاملا انماطا مختلفة من الناس ، وهو رمز شفاف للحياة — لا اعتقد ان المؤلف قصد اليه ، ولكن المؤكد ان المؤلف حشد في هذا القطار — عن عمد — ابطال قصته : فوزي السيد علي ورياض احمد الكرماني ، وفؤاد عبد السميع ، ونعرف انهم ذاهبون الى المنيا ليشاهدوا حفل تمثيل مدرسي ابطاله من اصدقائهم وفي المنيا نتعرف على بقية الرفاق محي اسماعيل وخالد امين وفكري عبد الحميد ، ونشهد حفل التمثيل ثم نترك هؤلاء الرفاق يفترقون ولكن بعد ان تمسك بكل الخيوط التي ينسج منها المؤلف قصته .

فمن خلال رياض يتعرف فوزي على اخته امال ، ومن خلال محيي يتعرف على خالد امين وفكري عبد الحميد ، ومن خلال فكري يرتبط الرفاق بفؤاد عبد السميع . ومن خلال فؤاد عبد السميع نعرف أزهار ، ثم تمضي القصة مع هؤلاء الابطال فنعيش من خلال تجاربهم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع القديم ، ونتطلع معهم الى الحياة الجديدة ، وبعد اهوال واهوال واحداث متتابعة ... نلتقي بهؤلاء الرفاق مرتين :

مرة في حفل زفاف فوزي السيد علي بعد ان يصبح ملء السمع والبصر على رأس حركة سياسية جديدة تبشر بالفجر الجديد ، وتدعو الى تحطيم الحياة القديمة .

ومرة ثانية في ساحة المحكمة حيث يترافع فوزي ومحيي عن فؤاد عبد السميع الصائغ الذي اصبح زوجا لابنة رمضان باشا ، وشتان بين الاجتماعين . هناك نرى قمة ازدهار الشباب الجديد المتطلع ، وهنا نحس المأساة الاليمة للقيم القديمة والعلاقات الاجتماعية المنهارة وهي



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ | Tél. : Direc. : 223819 Dle. : 225139

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول البير اديب

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت — لبنان

تتمزق وتغرب وتندثر في الظلام .

وقد نجح المؤلف الى حد بعيد في التوفيق بين مقتضيات الفن الروائي وبين تجسيد هذه الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونجح الى حد ابعد في اختيار النماذج والاحداث التي تصور التمزق والتطلع في شتى النواحي .

ففي المجال السياسي والاقتصادي يختار المؤلف نماذج واحداثا غاية في الدقة والبراعة لتصور انهيار الحياة القديمة . في قسم البوليس نشهد اجتماعا بين المأمور وبعض الضباط يرسمون الخطة لتزييف الانتخابات ، ونشهد وصفا بارعا لزعماء احزاب الاقلية ورجال الملك وخنوعهم ، ثم ينتقل بنا المؤلف الى اجتماع لحزب الاغلبية ويصور في سخرية لاذعة كيف كانت تدار هذه الاجتماعات ، والمهازل التي كانت تتخللها ، وينتقل بنا المؤلف فنشهد المعارك التي تدور حول الكراسي والمناصب ... وما اردع هذا الوصف لاجتماع الزعماء بالملك فؤاد ليصدروا دستورا جديدا بدل دستور سنة ١٩٢٣ ...

ومن خلال هذه الاحداث والمشاهد نحس انهيار هذه الحياة وفسادها وتمزقها وبدل ان يتركنا المؤلف نهبا لليأس نراه يبعث الامل في نفوسنا، وينقلنا الى الجانب الاخر ... الى الحياة الجديدة والشباب الجديد فنرى فوزي السيد علي ورفاقه قد احدثوا في الحياة احداثا كبيرة هزت المجتمع القديم وتحدته في عناد واصرار بكل مؤسساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فهم يدعون الى التحرر الاقتصادي كوسيلة للتحرر السياسي ويتحدون المجتمع القديم في عناد جارف ويدعون الى انشاء المصانع بمال الشعب ... ويتحقق حلمهم وينجح مشروع القرش الذي دعوا اليه ويقوم مصنع للطرابيش كرمز حي خلاق للحياة الجديدة التي يتطلع اليها الشباب ... وكان من الطبيعي ان يقود هؤلاء الشباب بعد ذلك حركة سياسية جديدة تكون طليعة الفكر السياسي المتحرر ، وتنمو هذه الحركة وتصدر جريدة سياسية من لون جديد تتحدى الجيل القديم والانجليز ، وتصطدم مع المؤسسات السياسية القديمة والاحتلال اصطداما مروعا ، وتمضي الحركة لا السجن يخيفها ولا التهديد يثنيها عن عزيمتها ، وتقدم الشهداء في عام ١٩٣٥ وتبعث في المجتمع كله روحا جديدا يختلف كل الاختلاف عن ثورة سنة ١٩١٩ لقد تكون في ثورة ١٩ زعماء سياسيون ركبوا موجة الثورة وحولوها الى مغانم ومكاسب ، ولكن الثورة السياسية والفكرية التي احدثها هؤلاء الشبان كانت صدى لنفوسهم القوية المتطلعة ، وانعكاسا لصلابتهم وظروف مجتمعهم ، ولذلك تكون في ظلال هذه الحركة شبان اشداء ذو صلابة وعزيمة احدثوا في مجتمعنا فيما بعد ثورة عاتية غيرت المجتمع كله تغييرا اساسيا ، وانا اعتقد مخلصا ان المقدمات الحقيقية لثورة ٢٣ يوليو هي هذه الثورة الفكرية المتطلعة التي قام بها هؤلاء الشباب الذين تحدثت عنهم قصة أزهار .

ومؤلف القصة يتخذ بهاء عبد القادر رمزا للشبان الذين تكونوا في ظلال الحركة الفكرية والسياسية الجديدة وهو شاب قمحي اللون فارع الطول نشهده في مظاهرة سياسية في الاسكندرية يدافع عن فوزي السيد علي ويشتبك مع البوليس من اجله ويكاد يفقد حياته وهو يتحدى البوليس ... ومن حوار بينه وبين ناجي نفهم انه من مدرسة رأس التين وانه خاض المعركة لاحساسه بالظلم الواقع على هؤلاء الشباب « لقد اهاجني رؤية البوليس يعتدي عليكم انني اكره البوليس انه عدو الشعب » (أزهار ص ٤١٤) .

وانا اعتقد ان هذه الشخصية ترمز الى الرئيس جمال عبد الناصر .

واذا صح اعتقادي فانني اقرر ان التطلع الجامح الذي صورته هذه القصة من خلال ابطالها فوزي ومحيي وخالد وغيرهم كان البذرة الاصيلة التي ترعرعت واينعت في ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ وعلى هذا الاساس يمكن أن نعتبر قصة أزهار دراسة فلسفية لمقدمات ثورة ٢٣ يوليو .

ولا يمكن لهذه السطور مهما بلغت ان تصور في وضوح فكرة التمزق والتطلع كما تعكسها الرواية وهذا هو الفارق بين التقرير والتجسيد ، والكلام العادي ، والبناء الفني ولا بد، لمن يريد ان يحس صدى هذه الفكرة قويا ، ان يقرأ القصة ليرى كيف تتصادم القيم القديمة مع القيم الجديدة تصادما مروعا ، وتتمزق العلاقات الواهنة وينبثق من وسط الظلام تطلع الى المستقبل يهفو الى التغيير وبناء مجتمع جديد ، ومن الحق ان نقرر ان الكاتب لم تشغله فكرة التمزق وتصوير انهيار الحياة السياسية والاقتصادية عن الفن الخالص ، ورسم النوازع النفسية ، والانحرافات العاطفية ، والعلاقات العاطفية المتاججة بكل الوانها ... ولكنني ايضا احسست بصدى عميق لفكرة التمزق والتطلع في هذا المجال الوجداني والاجتماعي ، وهذا امر طبيعي ، فالحياة السياسية والاقتصادية تعكس اثارا كبيرة ، وظلالا متعددة تلون الحياة العاطفية والاجتماعية ، وقد كانت « امال » ظلا لهذه الحياة المتناقضة ، القديمة التي تتمزق ... فعلى الرغم من انها سافرت الى انجلترا وعاشت فترة طويلة هناك اكتسبت خلالها قسطا كبيرا من المعرفة والحضارة ، الا انها ظلت نهبا للصراع العاتي بين الحياة القديمة التي تتمزق ، وبين الحياة المتطلعة الى قيم جديدة وعلاقات جديدة فهي تحب فوزي السيد علي حبا عميقا متوهجا ، وتسحر بشخصيته ، وتصاحبه فترة من الزمن وهو يناضل هو ورفاقه ، ويتطلعون الى قيم جديدة ، وتخطب له ، ولكن مأساتها تصل الى القمة عندما تتمزق في نفسها خيوط الحياة الجديدة المتطلعة ، فتهفو الى الحياة القديمة بكل بذخها وفسادها ، وتترك فوزي وتتزوج شوقي بك نصار الرجل العجوز الذي كان زوجا لاختها الكبرى، والذي كانت تكرهه من كل قلبها ... وهنا نشهد اول تمزق في الحياة العاطفية يثير الحزن اللاذع الممض ، وان كان المؤلف لا يتركنا لهذا الحزن اللافح ، بل يعطينا صورة لازدهار التطلع العاطفي ، عندما نشهد فوزي السيد علي يزف الى وفاء هذه الفتاة الجميلة الطيبة المحافظة العميقة القلب ، الشفافة الروح ، ولكن تبقى علاقة فوزي وامال في نفس القارىء محدثة هذا الوهج اللافح ، لانها علاقة خصبة متشابكة برع المؤلف في تصويرها وابراز خفاياها .

على ان أروع العلاقات الانسانية وابعدها عمقا وغرابة نجدها عند « أزهار » وما يحيط بها من علاقات اجتماعية ، وهي نموذج بشري متفرد جدير بدراسة مطولة ولا نستطيع في هذا المجال ان نقف على ابعاد هذا النموذج ونتكشف اسراره واعماقه ، ومع هذا فلا بد من الوقوف بعض الوقت عند هذا النموذج ونحن نفسر قضية التمزق والتطلع ففي علاقة أزهار بفؤاد عبد السميع ، وعلاقة فؤاد بميرفت رمضان باشا، قمة التمزق العاطفي والاجتماعي والاخلاقي .

وأزهار فتاة نشأت في بيت محافظ فقير ولما مات والدها بدأت تحمل صليب العذاب في سبيل امها واخيها واختها ... اشتغلت خادمة عند قريبها الغني ، وتركت البيت بعد ان فقدت اعز ما تملك على يد ابن قريبها ... ومن هنا بدأت حياتها تتغير ... عاشت في الحانات وعملت في البارات ، واشتغلت راقصة ، ونشأت بينها وبين فؤاد عبد السميع الكونستابل الممتاز علاقة غريبة ، هذه الفتاة المجربة الخبيرة بالرجال تحب فؤاد حبا جنونيا بلا هدف ولا غاية ، رضيت ان تعيش في بيته بغير زواجه ... تفانت في خدمته ، قدمت له كل ما تملك وكان يطردها احيانا من البيت فتمضي في سكون ، وكان يطلب عودتها فترجع في سكون واستطاعت ان تصل الى قمة الشهرة وتصبح الراقصة الاولى للرقص الشرقي وتكسب المال . ولكنها ظلت محافظة على شيئين حبها العاتي الجنوني لفؤاد ، وحبها لاسرتها ... ولم يقابل فؤاد هذه العاطفة بالاحترام والتقدير ، بل كان يتخذ منها مجرد وسيلة لاشباع رغباته وكان فؤاد صورة مكبرة للتمزق الاجتماعي لقد حاول ان يصل الى القمة

عن اي طريق . واوقعته الظروف في طريق رمضان باشا احد اقطاب العهد الغابر فتزوج ابنته ميرفت وهي فتاة منحلة مدللة لا تقيم وزنا للشرف ، ولا تعرف طريق الاستقامة ، وكان بيتها عبارة عن ماخور ... في هذا الجو تعلم فؤاد الرقص والقمار وادمن شرب الخمر ، ووصلت ماساته الى ذروتها عندما ضاق بعشاق زوجته وقرر قتلها ، وبالفعل تمكن بعد جهاد مرير من قتلها مع عشيقها في مخدع الزوجية !!!

وفي المحكمة نلتقي من جديد بالتمزق والتطلع ... التمزق في شخص فؤاد وازهار وميرفت وعشيقها ... والتطلع في شخص فوزي السيد ومحيي وهما يدافعان عن فؤاد عبد السميع .

والحق ان هذا مشهد رائع من مشاهد الرواية نحس فيه احساسا قويا بتصادم القيم واصطراع الحياة ... حياة تغرب ... وحياة تبزغ من وراء الافق .

لقد وقف فوزي السيد علي في المحكمة لا ليدافع عن فؤاد بل ليتحدى الحياة القديمة ويدينها ويسخر منها بكل قيمها وتقاليدها ، ولقد احسست بالنشوة والارتياح وانا اشهد انتصار التطلع ... وانا اشهد فوزي يدين المجتمع ويجلجل صوته في ساحة القضاء « لقد كنا نحن ضحايا هذه اليد المجرمة يد البطالة والفراغ يد الثراء والغنى الفاحش ، يد السلطة المطلقة التي لا تعبأ بقانون او عرف او تقليد او دين ، يد الغرائز المنطلقة البهيمية التي لا تجد رادعا يوقفها عند حدها ... هذه هي اليد الباطشة التي بطشت بكل المنكوبين في هذه القضية (أزهار ص ٥٧٤) . وحكمت المحكمة على فؤاد بالحبس لمدة سنة كان قد قضى معظمها رهن التحقيق ، الا ان الحياة الغاربة كانت تتهاوى والقيم تندثر فانتحر فؤاد في السجن ، ولم يتذكر في هذه اللحظات الا أزهار التي وقفت طول حياتها الى جانبه ترك لها خطابا يقول لها فيه انه اخلى لها الجو لتتزوج من الرجل الذي احبها فهو جدير بها .... أما هو فمجرم قاتل . ونحن نشعر بجلال المأساة ، وتربص الاقدار بالناس على نحو لم نشعر به الا ونحن نقرأ مأساة اوديب او غيرها من المآسي اليونانية العاتية ... نشعر بالروعة والجلال والرهبة ونحن نطالع قول فؤاد « لقد بدأت الحجب تنقشع عن باصرتي وانا على ابواب الابدية ، ان في نفسي احساسا قويا اننا لسنا جميعا في هذه الحياة انا وانت وميرفت ووحيد ورمضان باشا وفوزي ومحيي وفكري وكل من عرفت من اشخاص ... لسنا سوى ممثلين نمثل ادوارا قد لقنت لنا منذ الازل .... الوداع يا أزهار » .

وبهذا الجو المحتضر الذي تحوم عليه اشباح الفناء ، وظلام العدم تنتهي القصة ، وتتوقف هذه الملحمة الانسانية الرائعة ... ولست ادري لماذا ختمها المؤلف هذه الخاتمة الفاجعة ، وتركنا نبكي على اطلال هذه الحياة المتمزقة المنهارة .. ؟ ولم يختمها بحفل زفاف فوزي السيد واجتماع رفاق النضال في هذا الحفل ، وهو رمز لانتصار حياة التطلع؟!

اعتقد ان المؤلف اختار الخاتمة الاولى ـ لا ليثير فينا الحزن والتشاؤم ـ ولا ليؤكد انتصار التمزق على التطلع ـ بل ليرمز ـ بهذا الظلام الشامل ـ للمأساة الكبرى التي كانت قد بدأت تلف العالم بظلامها المخيف ، هذه الدراما الانسانية الكبيرة التي اطلقنا عليها اسم الحرب العالمية الثانية ... لقد بدا كل شيء يدخل في الظلام.. الحياة والاحياء.

وبعد .. فلا يتصور القارىء ان الرواية لا تصور الا هذا التمزق والتطلع بهذه الصورة العاتية التي قررتها في هذه الدراسة ، ففيها الحياة كلها بأفراحها ومباهجها وفيها النماذج السحرية الاليفة ، وفيها العواطف الرقيقة الحانية ، ولكنني اخترت ان اطل عليها من هذا الجانب ، لاستخلص منها هذه الفكرة الكبيرة « التطلع والتمزق » . ولا بد لي ان اقرر في النهاية ان هذه الرواية عمل انساني كبير سيتحدى الفناء ويعيش بعد ان تفنى القرون وتتلاشى الاجيال .

القاهرة — عبد العزيز الدسوقي



• انا عائد من اليمن ـ تاليف احمد السقاف ـ ١٩٢ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• ثورة الحرية ـ قصة ـ تاليف هملتون باسو ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ٢٨٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الجهاد ببيروت .

• حياة جائعة ـ مجموعة قصص ـ تاليف عبد الله عبد الرحمن جفري ـ تقديم محمد عمر توفيق ـ الرسوم بريشة نزار خباز ـ ١٠٤ صفحة ـ مزين بالرسوم ـ مطابع دار الاصفهاني في جدة .

• كان لي قلب ـ مجموعة شعرية ـ راضي صدوق ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الجهاد (؟)

• بغداد والثوار ـ مجموعة شعرية ـ فوزي عطوي ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• قميص من نار ـ قصة ـ تاليف خالدة اديب ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ٢٧٢ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الجهاد ببيروت .

• المعتمد بن عباد ـ تاليف نديم مرعشلي ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الجهاد (؟)

• حفنة من تراب الوطن ـ تاليف قدري قلعجي ـ ١٧٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الجهاد ببيروت .

• لينين ـ تاليف قدري قلعجي ـ ١٩٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• اقوى من القبر ـ مجموعة شعرية ـ موسى سليمان ـ ١٥٢ صفحة ـ حجم صغير ـ منشورات المكتبة الاهلية ببيروت ـ دار الشمالي للطباعة ببيروت .

• معلقة توفيق صايغ ـ شعر ـ توفيق صايغ ـ ١١٨ صفحة ـ منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• اللصوص ـ رواية ـ تاليف وليم فولكنر ـ ترجمة خالدة سعيد ـ ٣٥٠ صفحة ـ منشورات دار مجلة شعر ببيروت والمكتبة العصرية ـ مطبعة سميا ببيروت .

• انا والله والعالم ـ شعر ـ غازي فؤاد براكس ـ تقديم الدكتور انطون غطاس كرم ـ ١٥٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الرابطة الثقافية (؟) مطابع دار مجلة شعر ببيروت .

• انا احيا ـ رواية ـ تاليف ليلى بعلبكي ـ طبعة ثانية ـ ٣٢٠ صفحة ـ منشورات مجلة شعر ببيروت والمكتبة العصرية ـ مطابع سميا ببيروت .

• قصائد اولى ـ مجموعة شعرية ـ علي احمد سعيد (ادونيس) ـ طبعة ثانية مزيدة ـ ١٤٠ صفحة ـ منشورات دار مجلة شعر ببيروت والمكتبة العصرية ـ مطابع دار مجلة شعر ببيروت .

• مطالعات في اللغة والادب ـ تاليف غازي سعيد السعد مدير مدرسة الخورنق بالمعقل البصرة ـ ٣٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة العاني ببغداد .

• الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ـ لابن شداد عز الدين ابي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي المتوفي سنة ٦٨٤ هـ . ـ تاريخ لبنان والاردن وفلسطين ـ عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ـ ٣٥٢ صفحة ـ ورق فاخر ـ حجم كبير ـ منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

• قضية العرب ـ طبعة ثالثة منقحة ومزيدة ـ تاليف علي ناصر الدين ـ ٢٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع دار الصحافة ببيروت .

• الوضع البشري ـ تاليف اندريه مالرو ـ ترجمة نبيه صفر ـ ٣٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطبعة قلفاط ببيروت

• العيون الخضر ـ مجموعة شعرية ـ عمر ابو قوس ـ ١١٦ صفحة ـ مطبعة الشرق بحلب .

• العراق الثائر ـ تاليف محمد باقر شرى ـ ٢٠٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• الثائر ـ قصة ـ تاليف رفائيل ساباتيني ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ٢٥٤ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ المطبعة التجارية (؟)

• ١٢ قصة ـ مجموعة قصص ـ تاليف عاصم الجندي ـ ١٤٤ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• الشيوعي المليونير ـ مجموعة قصص ـ تاليف نجاتي صدقي ـ ١٩٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• ادباء السجون ـ تاليف عبد العزيز الحلفي ـ ٢٢٤ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• شهيرات النساء في العالم الاسلامي ـ تاليف قدرية حسين ـ ٢٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• حيث لا تشرق الشمس ـ قصة ـ تاليف دالاس ل. براون ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ٢٥٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• كاتب من اكسفورد ـ تاليف جلبرت هايت ـ ترجمة حسن الجداوي ـ مراجعة مصطفى طه حبيب ـ مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي ـ ٣١٦ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية (؟) ـ مطابع دار الجيل (؟)

• قصص تانجلوود ـ تاليف ناثانيل هوثورن ـ ترجمة الدكتور شوقي السكري ـ مراجعة الدكتور سهير القلماوي ـ ٢٢٤ صفحة ـ مع عدة لوحات ورسوم ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية (؟) ـ مطبعة مصر بالقاهرة .

• محمود تيمور وفن الاقصوصة العربية ـ تاليف فتحي الابياري ـ ٢٠٦ صفحة ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

نجحا في ان يحقنا بالتراخوما الفئران البيضاء بطريقة مداورة ، وذلك بادخال الداء الى دماغها . وحصل هذان العالمان على ارومة . هي عبارة عن نبتة صافية للفيروس . لكنها كانت تختلف من حيث خصائصها البيولوجية عن الفيروس الطبيعي .

ولم يكشف العالمان اليابانيان عن طريقة تجربتهما . لذلك فقد كان من الصعب تفسير اسباب التغير البيولوجي للفيروس . وبعد ذلك بقليل ، نشرت انباء عن ابحاث جديدة . لقد امكن الحصول على زرع الفيروس بتلقيح اجنة الفراخ .

ان اخفاق علماء فيروسات ذوي شهرة عالمية لم تلق الشك في ذهن شاتكين . بل بالعكس، لقد كان يبحث في كل تجربة عن ذرات الحقيقة التي يمكن استخدامها لاجل الابحاث التالية . لقد قرر شاتكين مواصلة التجارب التي لم تنجح . وحاول تلقيح التراخوما لفئران بيضاء عن طريق حقن في الدماغ .

ولاجل عزل الفيروس كرر شاتكين التجارب بتنوعات متعددة . لقد استخدم عينات مأخوذة من ٢٤ مريضا ، ومعالجة بكيفيات مختلفة . وكان يدخلها تارة في قسم دماغي واحد ، وطورا في القسمين معا . لكن اكثر الامور اثارة للدهشة هو ان جميع الفئران ، بعد ادخال الفيروس ، كانت تبقى سليمة تماما ، وتبدو كأنها لا تتأثر مطلقا بالداء .

واخيرا ، واثناء احدى تجاربه ، رأى الفيروس ، الذي كان قد ترك الخلايا الدماغية لعشرات من الحيوانات سليمة ، يظهر بغتة طبيعته النادرة ، وذلك على اربعة فئران .

وهكذا ، عزلت اربع ارومات ، كانت تولد الداء عند الفئران البيضاء ، بعد ثلاثة او اربعة ايام من التلقيح ، وتميتها .

ولكن هل كان ذلك هو داء التراخوما حقا ؟ ان فحص عينات دماغ الحيوانات التي ماتت اعطى جوابا غير مباشر على هذا السؤال .

اجل ان الارومات التي تم الحصول عليها كانت تحتوي على فيروسات راشحة تشبه في كثير ، من حيث مظهرها، جسيمات بروفاسيك. لكن شاتكين كان يعلم ان عشرات العلماء الذين بحثوا قبله عن هذا العامل المسبب للداء قد هتفوا بالانتصار قبل فوات الاوان . وقام شاتكين باختبارات للتدقيق اكدت انه بلغ هدفه حقا . لكن العلم لا يقبل مبدأ « على وجه التقريب » . وكان شاتكين يذكر مبدأ كوخ الثلاثي الشهير ، الذي كان يرى ان كل باحث يقوم بدراسة اسباب داء معد عليه : اولا : ان يعزل العنصر المولد للمرض والحصول على زراعته في المختبر ، ثم ان يحقن بهذا الزرع جهازا عضويا متلقيا لتجديد انتاج اللوحة النموذجية للداء ، واخيرا ، اقتطاع العامل المولد للمرض مجددا عند الشخص الذي نقلت اليه عدواه ، لمقارنته مع العامل الاولي .

والمهمة الاولى انجزت مرتين . ولدى دراسة زرع مأخوذ من دماغ الفئران البيضاء كان شاتكين يقوم الى جانب ذلك بتجارب حالفها النجاح لاجل عزل فيروس الجرابات المحبة لدى اجنة الفراخ .

ان الاجنة الحية ، التي تنمو في حاضنات البيض الآلية ، قد اصبحت بصورة ما ، نوعا من المختبرات الصغيرة التي تنتج ملايين من العوامل المرضية . وبخلاف التجارب على الفئران البيضاء ، بدأ الفيروس ، منذ السلالة الثانية للتجارب ، في ممارسة عمله بقتل الاجنة . ولدى فتح البيضة التي كانت تحتوي على الجنين الميت ، كان شاتكين يأخذ عينات من الجرابات المحبة ويجد فيها كذلك جسيمات اولية تشبه بمظهرها التكوينات التي تملأ جسيمات بروفاسيك .

وقرر شاتكين ان يتحقق من حقيقة العامل المرضي للتراخوما ، المعزول من قبله ، وذلك بأن يحقنه لنفسه هو ذاته . وظهرت عنده حبيبات ، وبدأت قرنية العين تضطرب . ومع ذلك ، فان شاتكين لم يبدأ بعلاج نفسه الا بعد عزله مجددا فيروس الايبيتيليوم من مخاطه الجفني. وكان هذا الفيروس مماثلا تماما للزرع الاولي . وهكذا تم الحصول على ثلاثية كوخ.

لقد مضى عامان منذ ان حقن شاتكين نفسه بالتراخوما . وخلال ستة اشهر من العلاج المشدد تم وقف التطور النشيط للداء واستعاد شاتكين البصر .

والان ونجاح التجربة لم يعد مشكوكا فيه (تم الحصول في المختبر على زرع للفيروس) يجري الانشاء مستحضرات تؤمن العلاج الجذري للتراخوما ، وتتيح ايضا التشخيص المبكر .

في كلمات ...

● يشير البحث الذي جرى في مستشفى سانت ماري لتعليم الطب في لندن الى ان فقر الدم قد تخف وطأته بواسطة التدخين . فمن اعراض فقر الدم تكون خلايا كالمنجل وقد سميت هكذا بسبب شكلها وظاهرها في حين ان شكل الخلايا السليمة هو اسطواني . وقد اكتشف الدكتور سيرز ان تكوين خلايا بشكل منجل يمكن تقليله وتخفيض معدله باعطاء المريض كميات ضئيلة من اول حامض الكربون الغازي في الاوكسجين . وفي تجربة اجريت على احد المرضى تدنت نسبة تكوين الخلايا التي تتخذ شكل منجل من ١٠ ٪ الى ٤ ٪ تقريبا . ويعتقد الدكتور سيرز انه اذا برهنت هذه المعالجة عن نجاح في تخفيض حدة فقر الدم ووطأتها فانه يمكن تجميع نسبة ملائمة من اول حامض الكربون في الجسم بواسطة تدخين السكاير .

● استطاع الخبراء والمهندسون في شركة بريطانية ابتداع جهاز راديو كحبة الدواء في حجمه . وهو يواصل اعطاء الاشارات عن حالة امعاء المريض ومعدته ويرسلها بصورة دائمة مستمرة الى لوحة معلقة الى جانب سريره . وباستطاعة المريض ان يبتلع الجهاز بسهولة كلية كأنه حبة دواء .

● كلما كانت معرفة الاصابة بالمسامير الدموية ، انسداد الاوعية الدموية ، في وقت مبكر ، كلما ازدادت امكانية المعالجة والشفاء. وقد ظهرت في تشكوسلوفاكيا الان طريقة جديدة للتشخيص ، تعتمد على الحقيقة المكتشفة بان بعض انواع ادوية الانتيبيوتيك تتمركز في خلايا الانسجة المريضة بكمية تزيد عن بقائها في الخلايا السليمة . ويتم ذلك بأن يحقن الشخص المشكوك في امره ، بمستحضرات الانتيبيوتيك التي تحوي مقدارا ضئيلا من الاشعاعات النشيطة . وبعد فترة قصيرة ، يمكن بواسطة اجهزة خاصة ، التأكد من وجود انسدادات في الاوعية ، كما ويمكن التعرف تماما على موضع تمركز المرض في الجسم .

● قال اطباء المركز الصحي في جاكسون بولاية الميسيسبي انه تم زرع رئة لمتبرع مكان رئة مصابة بالسرطان لرجل يبلغ من العمر ٥٨ عاما دون ان تكون هنالك قرابة بين الشخصين. ولم يعلن اسماء الشخصين . وقد استغرقت العملية ثلاث ساعات وذكر ان المريض كان في حالة جيدة بعد العملية . ولكن الاطباء قالوا ان الوقت مبكر جدا لاجراء تشخيص بعيد المدى . وجاءت العملية بعد سبع سنوات من التجارب على الحيوانات . وقد اجريت للكلاب ١٥٠ جراحة ناجحة من هذا القبيل وامكن بفضل ذلك معرفة الطرق الفنية التي تجعل فرص النجاح عند اجراء الجراحة للانسان معقولة .

● تبين من التحريات التي قامت بها وزارة الصحة العامة وعدد من الخبراء التابعين لمنظمة الصحة العالمية ، ان تضخم الغدة الدرقية يبلغ نسبة مرتفعة في بعض المناطق اللبنانية .

● لم يكن اطباء العصور القديمة الكبار يطلقون الاسماء ذاتها على الادوية في مختلف البلدان وهذا منشأ صعوبات دراسة التراث الذي خلفه هؤلاء . ويعمل علماء الطب في اوزبكستان منذ بضع سنوات في وضع قاموس

للنباتات الطبية التي استخدمها اطباء العصر الوسيط . هذا القاموس يحدد تسمية الدواء منذ عشرة او خمسة عشر قرنا في اللغات العربية والفارسية واللاتينية والروسية والاوزبكية ومن أي عنصر من النبة كان يحضر ومن هم كلاسيكيو الطب الشرقي الذين كانوا يستخدمون في ممارستهم الطبية . وسوف يشتمل القاموس على الفي اسم وضع ثمانماية منها . وهو اول قاموس من هذا النوع في تاريخ الطب .

● صدر في المؤتمر السنوي لجمعية المجالس الريفية في ساوثبورت في بريطانيا ، تحذير من ان استخدام الهرمونات في المواد الغذائية من شانه ان يؤدي الى تغييرات جنسية . وقال المستر ي. بوت رئيس مجلس سيتل الريفي ، ان مزارعا اسكتلنديا يربي حيوان النمس منح تعويضا مقداره ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لان الحيوانات اصيبت بالعقم نتيجة تغذيتها بالهرمونات . واضاف انه من الحكمة ان يفكر المرء وهو يأكل الدجاج بانه ربما كان يتعرض الى نفس هذه المجازفة الخطرة . وقال ان المسؤولين عن انتاج اطعمة الماشية في هولندا منعوا استخدام الهرمونات لان من المعروف انها قد تكون من اسباب الاصابة بالسرطان .

● صنع في الاتحاد السوفياتي جهاز لفحص الدم يقوم في يوم واحد بعمل مختبر كبير . فالدم يفكك بدقة قصوى وعناصره لا تثبت فقط على رسم بياني بل وتجمع في قوارير . ويتوفر للاطباء ان يحددوا ، حسب كل عنصر ، التغيرات في الدم ويجدوا طابع المرض ويعرفوا قوانين تفاعل الدم مع المستحضرات الكيميائية وتفاعل الدم مع الادوية الجديدة . هذا الجهاز لا سابق له في العالم .

● استطاع طبيب بريطاني ابتكار وسيلة تكنية جديدة في تعقيم كمية كبيرة من الابر الطبية دفعة واحدة بواسطة استخدام الاشعة فوق الحمراء لقتل جميع انواع البكتيريا والجراثيم العالقة بها وجعلها معدة وجاهزة للاستعمال لارسالها الى عدد من المستشفيات كل يوم . ولقد عرض الطبيب طريقته هذه على الخبراء فنالت الموافقةالكلية والتقدير وستعمم قريبا هذه الوسيلة العلمية الجديدة للافادة منها اذ ستعتمد في بلدان عالمية كثيرة .

● المواد البروتينية عنصر هام في غذاء الانسان اذ تقوم ببناء الانسجة في فترة النمو، وتجديد ما يبلى من الخلايا في اثناء قيامها بوظائفها الفسيولوجية . ويتخلف من عمليات هضم وتمثيل البروتينات ، مواد ازوتية سامة ، اتخذت البول ، كمقياس لها لسهولة الكشف عنها ، وتقديرها من حيث الكمية . والكلى عبارة عن مرشحات عضوية ، تسمح بمرور الزائد من الاملاح والماء وكذلك المواد السامة من الدم ، وتفرزه على هيئة سائل ملون هو البول . ولا تسمح الكلي السليمة بمرور الزلال او السكر طالما كانت نسبته في الدم لا تتجاوز ١٢ بالمائة . واهم امراض الكلي هي الالتهابات والحصوات . اما الالتهاب الكلوي فهو أحد المضاعفات الخطيرة لكثير من الحميات وبخاصة الحمى القرمزية في الاسبوع الثالث، وكذلك الحصبة والجدري والدفتيريا. كما انه قد يعقب التهابها متكررا في اللوزتين او بيوريا او اية بؤرة تقيح اخرى في الجسم. وقد يحدث كذلك في اثناء فترة الحمل والنفاس . وقد ثبت ان التعرض للبرد وتعاطي المواد الكحولية من العوامل الهامة التي تقلل مقاومة الكلي وتسهل اصابتها بالالتهاب . فللوقاية من الالتهاب الكلوي يجب تجنب ذلك، كما يجب على مريض الحمى العلاج المبكر مع تناول كمية كافية من القلويات مثل نترات الصودا ، وكذلك يحسن علاج بؤر التقيح في الجسم سواء كانت في اللوزتين او الاسنان او أي عضو اخر. والتهاب الكلي هو أحد العوامل التي تهيء الطريق لتكوين الحصى اذ يفقد الاغشية المبطنة نعومتها مما يسهل ترسيب الاملاح عليها ، كما ان نقص فيتامين (أ) له نفس التاثير اذ يخشن سطح هذه الاغشية . كذلك اضطراب التمثيل الغذائي يسبب تركيزا في الاملاح مما يسهل رسوبها على شكل حصوات ، خصوصا عندما تكون هناك نواة ترسيب مثل بويضات البلهارسيا او أي عائق اخر .

● انشأ علماء سوفياتيون جهازا الكترونيا للتنقيب الجيولوجي . بفضل هذا الجهاز يمكن تكوين فكرة دقيقة عن تركيب الارض . والجهاز يعتمد فعل التيار الكهربائي . اذا امررنا التيار عبر طبقات الارض نشأ حقل كهربائي من نوع معين في كل منها . ويحدد محلل الكتروني ، حسب انعكاسات الذبذبات الكهربائية ، الصخور التي تكون على هذا العمق او ذاك . ويقوم الجهاز اوتوماتيكيا بجميع القياسات ويرسم مخطط تركيب اعماق الارض . وهو يسهل التنقيب عن الخامات بشكل محسوس .

● تم في بريطانيا اخيرا اختراع جهاز يستطيع بصورة اوتوماتيكية ان يتوقف عند الصورة المطلوبة من بين مجموعة من الصور الفوتوغرافية الملتقطة في فيلم من قياس ٣٥ مللمترا يضم عددا كبيرا من الصور المصغرة . وبعد ان يتوقف الجهاز عند الصورة المطلوبة ، يبرزها في قياس مكبر. وفي وسع هذا الجهاز ان يختار الصورة المطلوبة من بين فيلم يضم ١٢٠٠ صورة سالبة (النسخة الاصلية من الصورة) كل واحدة تمثل مستندا يبلغ قياسه الاصلي ورقة من نوع الفولسكاب او اكبر اذا كان خريطة هندسية ، وان يتوقف عند هذه الصورة ويعكسها بصورة مكبرة فوق شاشة خاصة ، وعندئذ يجري طبعها فوق ورقة خاصة بصورة اوتوماتيكية ايضا . ويتم ذلك كله بمجرد كبسة زر واحدة .

● رقي فن التصوير الفوتوغرافي رقيا مدهشا في الاونة الاخيرة بفضل تقدم الاجهزة الالكترونية التلقائية التي تؤدي عملها بسرعة البرق الخاطف دون مشرف او مدير لتسييرها وتوجيهها . وعلى هذا الاساس تفنن المهندسون ورجال البحث بابتكار العديدمن نماذج الاجهزة والالات المعدة لشتى الاغراض والاهداف . والان استطاع فريق من الخبراء البريطانيين ابتكار جهاز للتصوير الفوتوغرافي السريع من الجو يأخذ المشاهد ويظهرها في ست ثوان ويستمر في عمله بصورة دائمة الاخذ والانتاج والتظهير بينما الطائرة سائرة سواء على اساس التحليق العالي او المنخفض . وسيكون لهذا الابتكار دور كبير في الدراسات الجيولوجية ووضع خرائط البلدان ومسح الاراضي والتنقيب عن المعادن والنفط .

● نبتت قرب بخاري في اسيا الوسطى نبتة طريفة تغلفها طبقة حريرية سميكة . ووضع فريق من كيميائي وعلماء نبات اكاديمية العلوم الاوزبكية بالاعتماد على خصائص سوس جونفارسكي (اسم النبتة) الممتازة طريقة جديدة لحماية غلافات الاسلاك الكهربائية من الغبار . ان القماش الذي يبلل بمحلول من مستخلصات هذه النبتة يصير كتيما تماما . ويعتقد العلماء الاوزبكيون ان المصريين القدامى كانوا يحضرون من سوس جونفارسكي محلولا يبللون به الاقمشة لتغليف الموميا .

● اصبح لدى بريطانيا الان جهاز آلي لاسلكي من طراز جديد يعرف باسم «تليكس» ويصلها مع ٨٠ قطرا رئيسيا من اقطار العالم عبر البحار وذلك بصورة بالغة السرعة لارسال الاف المخابرات دون انذار او استعداد سابق كما كانت الحال مع الاجهزة الهاتفية اللاسلكية المعروفة حتى اليوم . ولقد توصل الى ابتكار هذا الجهاز مهندسو مصلحة البرق والبريد في بتنفهام ببريطانيا .

● وضع مهندسو معمل بريطاني تصميما تكنيا لجهاز الكتروني بالغ الصغر بحجمه وعظيم الدقة في عمله . وهو يستخدم لقطع التيار الكهربائي سواء أكان للنور او للطباخ ، واعادة وصله حسب الاوقات المعينة سابقا . وهو يؤدي مهمته بكل ضبط واتقان .



انطباعات غربية : أسبوع في يوغوسلافيا

خلال مدة الحرب العالمية الثانية ، احتلت الجيوش النازية يوغوسلافيا وعملت فيها الخراب والدمار . وبانتهاء الحرب وانتصار الحلفاء تحررت يوغوسلافيا . لكن النكبة كانت جلية بالنسبة لسكانها . كانت أليمة وقد اصابت كل واحد منهم في الصميم . دمرت معظم البيوت وقطعت طرق المواصلات وانهارت الجسور الحديدية ، وفقدت البلاد حوالي مليوني نسمة من سكانها . ولكن النكبة لم تستطع الدوام .

لقد شمر اهل البلاد عن سواعدهم ، واخذوا يعملون بنشاط مستمر في سبيل بعث الحياة الطبيعية من جديد الى وطنهم . فانتشر العمران ، وامتدت شبكة المواصلات في جميع انحاء البلاد ، وكثرت الحدائق والمنتزهات العامة ، وفتحت المدارس ابوابها على مصراعيها لتلقين النشء العلم مجانا ، ونزلت المرأة الى ساح العمل تشتغل في كل مجالاته ، واخذ السياح يفدون بكثرة غريبة الى المدن وخاصة الى مدن شاطىء الادرياتيك الساحرة المناظر .

ويوغوسلافيا ، كما هو معلوم ، جمهورية اتحادية شعبية تتكون من جمهوريات ست : صربيا وعاصمتها بلغراد او بيوغراد كما يسميها اهلها وهي العاصمة الرئيسية ليوغوسلافيا ، كرواتيا وعاصمتها زغرب ، سلوفانيا وعاصمتها لوبليانا ، بوسنيا وعاصمتها سراجيفو ، مقدونيا وعاصمتها سكوبيا ، مونتنفرو وعاصمتها تيتوغراد . وقد قال الرئيس نهرو في أحد تصاريحه : « في يوغوسلافيا .. يوجد ست جمهوريات ، وخمسة شعوب ، واربع لغات ، وثلاثة اديان ، وابجديتان ، ولكن توجد ارادة واحدة فقط هي الاستقلال .

وبدعوة من مجلس اتحاد السياحة في كرواتيا ، مكثت اسبوعا كاملا في يوغوسلافيا زرت فيه زغرب ولوبليانا وبعض المدن السياحية الشهيرة في جمهوريتي كرواتيا وسلوفانيا ووقفت على بعض النشاطات الادبية والفنية والاجتماعيات هناك .

قانون السير

لقد لفت نظري وانا اتجول في زغرب قانون السير . ان المرء ليصعب عليه ان يقع هناك على ازمة السير التي نعانيها في بيروت في الوقت الحاضر . فالشوارع فسيحة واكثرها مزود باشارات السير الضوئية ، فضلا عن ان سائقي سيارات النقل الكبيرة والقاطرات الكهربائية والسيارات العمومية والخاصة يتقيدون جميعهم بقانون السير الذي ينص على عدم استعمال الزمور او السرعة او المزاحمة ، وعلى الوقوف امام الممرات المسمرة او المطلية بالكلس الابيض لاعطاء الفرصة للمشاة لعبور الشوارع .

ونادرا ما يكتب رجل البوليس مخالفة بأحد السواقين ، ذلك ان مدارس تعليم قيادة السيارات تزود السائق بمعلومات تدعه يحافظ على قانون السير محافظة دقيقة .

المحافظة على النظام

كما انه من الصعب جدا ان يجد المرء رجال شرطة يحافظون على سير النظام ، او يقفون على اهبة الاستعداد لنجدة هذا او ذاك من خطر المجرمين او لقمع مظاهرة تنادي بسقوط المسؤولين ، او لصد هجوم مسلح ، او لاعتقال أحد السارقين او المتسولين ...

ان الفرد في زغرب كما في غيرها من المدن اليوغوسلافية يحب النظام .. يعبده . انه شرطي نفسه ، ويعمل دوما على نشر روح النظافة في كل بقعة من بلاده ، ويريد مخلصا ان يلاقي الزائر كل ترحاب في أي موضع من المدينة يلقي فيه عصا الترحال . انه انسان حارب ويحارب فكرة الاجرام ، وقبل بالنظام الحالي الذي شعر بموجبه انه اصبح عضوا نافعا في مجتمعه مهما كان نوع عمله ، وان الحياة السائدة وفرت له الطمأنينة والسعادة . وابتعد عن القيام باية مظاهرات، واقصى عن ذهنه عوامل السرقة ، وتقيد داخل حانوته او مصنعه باسعار المبيع الرسمية ضاربا بالغش عرض الحائط .

وزغرب مدينة قديمة . بدأ تاريخها منذ عام ١٠٩٣ وقد تعرضت مرارا للهجمات والغزوات من قبل المغامرين ، ولا سيما التتار الذين احرقوها وشتتوا اهلها ، وظلت عرضة للنهب والسلب والغزوات القديمة حتى اشتهرت بالقرن الثامن عشر باسم « بركة الدماء » .

ورغم تاريخها المؤلم ، فانها اليوم تعيش حياة مشرقة بمناظرها الخلابة، غنية بمتاحفها ومكتباتها وساحاتها العامة التي تنتصب فيها تماثيل عديدة لرجالات الادب والفن والموسيقى وللقواد العسكريين ، حية بمصانعها الكبيرة . وهي تعتبر اليوم مدينة صناعية ضخمة ، بل انها رائدة الحركة الصناعية في يوغوسلافيا . كما ان في شهر ايلول منذ عشرات السنين ، يقام على ارضها معرض صناعي تشترك فيه اغلبية دول العالم .

حالة الفن

ومن ناحية الحركة الفنية ، فان حركة الفن الحديث بدأت في الانتشار في جميع الانحاء اليوغوسلافية ، ففي كرواتيا مثلا ، لقيت لوحات كراجيفتش وبيشيتش وراشيستش شهرة كبيرة . وقد تمثل فيها الفن الانطباعي خير تمثيل كما لن تماثيل النحات العبقري ايفان مستروفيتش، الذي كان سباقا بالنسبة لعصره ، والذي يعتبر اليوم من اكبر نحاتي القرن العشرين بعد ان نال شهرة واسعة في اوروبا واميركا وتتلمذ عليه العديد من رواد النحت المعاصر ، لتشهد هذه التماثيل اقبال الناس على تأييد الحركة الجديدة ومناصرتها . وقد توفي مستروفيتش في الولايات المتحدة الاميركية في كانون الثاني من عام ١٩٦٢ .

وقد توصل ارباب الفن الحديث اليوم على العيش من ريع ريشتهم وازميلهم . اقاموا عدة معارض لتصريف انتاجهم ، فاقبل عليها هواة الفن ومقدروه واشتروا لوحاتهم وتماثيلهم . كما ان الحكومة ساهمت مساهمة مجدية في بلورة الفن والنهوض به اذ اشترت العديد من عطاءاتهم ، وزينت بها الدور والمؤسسات الرسمية ، والمتاحف والحدائق العامة ، والشوارع الرئيسية ...

وهناك ظاهرة لفتت انتباهي وانا اتجول في أحد المتاحف – والمتاحف في زغرب ليست وقفا على آثار فناني جمهورية كرواتيا فقط ، انها تضم مثلا لوحات عديدة لكبار فناني يوغوسلافيا كلوبارده وميلونوفيتش – هذه الظاهرة هي هيمنة الطابع الحزين على القسم الاكبر من الرسوم الزيتية . فاصحاب هذه اللوحات ، وقد عايشوا الحرب العالمية الاولى والثانية، تأثروا بمظاهر البؤس والحرمان والالم التي سادت انحاء البلاد خلال الحربين ، على ان الفنانين الشباب ابتعدوا عن هذه الاجواء . لقد اضفوا على انتاجهم الوانا زاهية ضاحكة . كما انهم لم يتحمسوا للقضاء على المدرسة الكلاسيكية ، ومنهم من عمل تحت ظل المدرستين الكلاسيكية والحديثة .

ازدهار الادب

وكما ازدهر الفن ، فان الادب ايضا لقي ازدهارا . فالمسرح مثلا حظي بشهرة واسعة في زغرب ، وبعد عام ١٩٠٣ مثلت كثيرا في هذه المدينة

مسرحيات للكاتب اليوغوسلافي المعروف كيروسلاف كرلجا ، وللكتاب الاجانب ديكنز ، وكوكتو ، واستروفسكي ، فبعد العرض الاول لمسرحية كرلجا « الجلجلة » افتتح مسرح زغرب القومي عهدا مهما بالنسبة له ، جدد خلاله طريقة تمثيل مسرحيات المؤلفين القدامى من محليين واجانب، وقدم مسرحيات موليير وشكسبير في ترجمات واخراج جديدين . وقدم ايضا مسرحيات لتولستوي ودوستويفسكي وغوغول وورومان. وهناك بادرة يجب التنويه بها ، وهي ان العديد من مسرحيات مؤلفين فرنسيين كانت تمثل في زغرب عقب عرضها الاول في باريس .

والشعر انتشر . لقد اتى الشعراء بمواضيع صوروا فيها العادات والتقاليد اليوغوسلافية القديمة والحديثة . في قصائدهم وصف دقيق للمصائب والويلات والاخطار التي سادت بلادهم اثناء مقاومتها للاحتلال النازي . كما فيها وصف لخلجات فؤادهم وحياتهم اليومية ، وهذا الوصف حمل لواءه اتباع الشعر الحديث الذي غزا جميع الاراضي اليوغوسلافية .

وقد غصت واجهات المكتبات في زغرب وبلغراد ولوبليانا ودوبرفنيك بدواوين الشعر الحديث . واقبل عليها الناس ، كما قال لي سكرتير جمعية ادباء كرواتيا في زغرب السيد ايفانيسفيتش ، اقبالا مشجعا .

وكما الشعر ، كذلك القصة وغيرها من الفنون الادبية وكلها انتشرت، بعد الحرب الثانية ، ولقيت تأييدا من الشعب والمسؤولين في الحكم .

اهمية السياحة

وتعتبر اليوم جمهوريتا كرواتيا وسلوفانيا من اغنى المناطق اليوغوسلافية من حيث السياحة . ففي سلوفانيا تقع بحيرة بليد ، وهي من اجمل بحيرات العالم . يقصدها السياح من جميع الاطراف الاوروبية لقضاء عطلتهم على ضفافها . وهي محيطة بالجبال من جهات اربع ، لا سيما جبل الالب ، وكأني به في مكانه هكذا لحراستها . وتقوم في وسطها كنيسة يرجع عهدها الى القرون الوسطى . وفي عيد الميلاد من كل عام يقام فيها قداس كبير . وقد اضحت هذه البحيرة قبلة انظار رجال السياسة . كما ان رؤساء الدول الذين زاروا يوغوسلافيا قد امضوا ردحا من الوقت في « الفيلا السياسية » اي المنزل الواقع على ضفتها الغربية ، والمعد خصيصا لاستقبال زوار الحكومة الرسميين.
اما كرواتيا ، فانها غنية ايضا ببحيراتها . وهناك بحيرات بليتفتزه وهي وحيدة في العالم من حيث نوعية شكلها ، انها مؤلفة من ست عشرة بحيرة على شكل درج ، وتبعد عن زغرب ١٧٤ كيلومترا . وقد شيد حديثا هناك فندق يعد من اكبر فنادق السياحة في البلاد .

درة الادرياتيك

وهناك الشاطىء الادرياتيكي الغني بمناظر جباله الطبيعية وقد انتشرت في اعلى سفوحها قصور اباطرة وملوك يوغوسلافيا . واصبحت الان ملكا للدولة . وقد عملت الدولة جهدها ليصبح هذا الشاطىء مفخرة يوغوسلافيا ، يجذب اكبر عدد ممكن من السياح . ولعل اجمل مدينة قائمة فوقه هي دوبرفنيك .

وصلت هذه المدينة في المساء ـ ولم استطع ان اكتشف جمالها الا في اليوم التالي حيث تذكرت ما قال عنها الفيلسوف الساخر برنارد شو : « ان الذي يبحث عن الجنة على سطح الارض لا يجب ان يتعب نفسه كثيرا ، فليذهب الى دوبرفنيك » .

ودوبرفنيك او « درة الادرياتيك » كما تسمى اليوم ، مدينة تاريخية عامرة بآثار قديمة لا تقل روعة عن الاثار الباقية في أثينا عاصمة اليونان، مما حمل البعض على ان يطلقوا عليها اسم « اثينا السلاف » وهذه الاثار ، كما قال الكاتب المعروف ادموند سالاكر ، تكاد تتحدث الى مشاهديها .

ولعل اعظم الاثار الباقية على مر العصور ، هو السور الكبير الذي يحيط بشوارعها الضيقة واديرتها وكنائسها التي يرجع عهدها الى القرون الوسطى ، وقد خيل الي وانا انظر الى هذا السور من بعيد ، كأنه يحيط بقلعة شبيهة بقلعة صيدا اللبنانية . واول شيء يقوم به السياح عندما ينزلون الى المدينة هو الاتجاه صوب السور والصعود اليه ليرموا بأبصارهم ناحية الجزر الصغيرة المكسوة بالاشجار ، المنتشرة في البحر الادرياتيكي ، والتي يسمح بزيارتها طيلة النهار فقط .

ونظرا لموقع دوبرفنيك الساحر ، فانها استطاعت ان تجذب الى ربوعها اشخاصا ينتسبون الى جميع الجنسيات . وفي كل صيف ، كما اخبرني مدير مكتب السياحة فيها ، تقدم سلسلة احتفالات موسيقية وتمثيلية وغنائية يطلق عليها اسم « احتفالات الصيف » وقد اتخذ من قلاعها وموانئها ومعابدها وهي تنتمي الى عصور قديمة ومختلفة ، مسارح تمثل عليها ـ في الهواء الطلق ـ تمثيليات تاريخية لكبار رواد المسرح الغربي .

حالة المرأة

وانا اتجول في شوارعها لفتت نظري حالة المرأة كما لفتته في المدن التي زرت سابقا ، فهذه الانسانة هي نفسها في كل المدن والقرى اليوغوسلافية . لقد صارت اليوم عضوا نافعا للبيئة ، بعد ان كانت في الازمنة المنصرمة اداة للهو او للخدمة .

رأيتها قوية البنية ، جذابة المحيا ، شقراء الشعر ، تعمل الى جانب الرجل في كل ميدان اجتماعي : في المصنع ، في المزرعة الجماعية ، في دواوين الحكومة ، تسوق عربات الخيل ، تقود سيارات النقل وقاطرات الكهرباء وتقطع داخلها التذاكر ، تقص شعر الرجال في محلات التزيين، تخدم الزبائن في المطاعم والمقاهي . ترافق السياح في تنقلاتهم ، تساهم في الحركات النقابية ، تمسح الاحذية ، تبيع الجرائد ، وهي راضية عن عملها ، وتؤديه بعزيمة لا تعرف مللا .

وبما ان البلاد تمر بمرحلة انشاء تستوجب الجهاد الشاق ، لذلك ترى المرأة قد تخلت عن كل زينة ، تخلت عن المساحيق والثياب الزاهية الالوان .

وبعد ، هذه لمحة خاطفة عن قانون السير وحالة المرأة والسياحة وحالة الشعر والفن ، في كل من جمهوريتي سلوفانيا وكرواتيا اللتين تشقان طريقهما بسرعة نحو تطوير الحياة في يوغوسلافيا .

ابراهيم عبده الخوري

اليانصيب الوطني اللبناني

نصير الطبقة العاملة

* * *

اليانصيب الوطني اللبناني

خير ضمان لمستقبل اولادكم

* * *



اليانصيب الوطني اللبناني

يحقق احلامكم

* * *

ساهموا بمشترى اوراقه

الجوائز الكبرى

٥٠،٠٠٠ ل.ل   ٣٠،٠٠٠ ل.ل   ٢٠،٠٠٠ ل.ل